

القسم الرابع

من أمثال الحاخامات وأقوالهم ونماذج من أساطير التلمود

- ويل للأبناء المحرومين من مائدة أبيهم .
- حفنة من الطعام لا تقوم بأود أسد ، وتراب الحفرة لا يكفي لملئها .
- ادعُ الله لنيل رحمته ، حتى يُهال الكوم الأخير من التراب على قبرك .
- لا تكفّ عن الصلّاة حتى وإن جرت السكين في مجرى نحرِكَ .
- لا تفتح فاك بكلمة سوء .
- طول الأناة خيرٌ من وفرة المال .
- الحصان الذي يُعلّف بالشعير على هواه يضحى حروناً .
- طوبى للتلميذ الذي على مقاله يُثني مُعلّمه .
- من ساعة كون الخيار غضاً يمكن الحكم على صلاحيته لاحقاً للأكل .
- لا تفعل بالآخرين ما تكره أن يفعله بك الآخرون .
- يتشكّى الجحش من البرد حتى في تموز .
- تعلّم أولاً ثم فلتعلّم الآخريّن .
- قلّة من الناس من يُصرون عيوب نفوسهم .
- الضوء الفرد ينير لثة رجل كما ينير لرجل واحد .
- الطعام الذي يطبخه عدّة طبّاخين لا يكون حارّاً ولا بارداً⁽¹⁾ .
- ما الحياة الدنيا إلا عرس .
- الصبا طاقة من الزهر .

(1) وفي المثل العبري السائر : כשהטבחים מרבים נקדח התבשיל : «إذا كثّر الطباخون شاطّ الطعام» .

- شُجيرة الآس تبقى حتى في الصَّحراء شُجيرة آس .
 رَوْضُ لسانك على مقولة : «لست أدري» .
 الدَّار الذي لا يستقبل المسكين يستقبل الطبيب .
 حتى الطيور في سمائها تزدرى البخيل .
 قرى الضيف من علائم عبادة الرّب .
 لصديقك صديق ، ولصديق صديقك صديق ، فكُن كتوماً .
 لا تستجرنَّ على نفسك المثالب والعيوب .
 دَع عنك غشيان المزايدات إن لم يكن لديك مال .
 سلخ الذبائح بأجر في قارة الطريق خيرٌ لك من التراخي والاستجداء .
 أكثر من التعاطى مع ذوي الحظّ والفلاح .
 المُقدَّر في قسمة جارك لا يكون أبداً لك .
 هزلة جدران دارك تُغري اللص بسرقتك .
 المكان لا يُشرف الإنسان ، بل الإنسان يُشرف المكان .
 حتى أدنى الرجال شأنًا يكون في بيته حاكماً .
 إذا أضحي الثعلب ملكاً فأنحن له .
 إن كانت الكلمة في موضعها بدرهم ، فالسكوت في موضعه بدرهمين .
 طوبياه يقترف الذنوب وجاره يتلقى الصقع .
 قد يلوح للفقير بهاءٌ على بعض الناس ، كسرج أحمر على فرس بيضاء .
 لا تستهلك ماء بترك كلّه إن كان للناس فيه حاجة .
 الطبيب الذي يصف الدواء مجاناً لا قيمة لوصفته .
 الوردة منبتّها بين الأشواك .
 الخمر خمر صاحب الدار ، أما الثناء فمن نصيب الساقى .
 من يشوب الأشياء يضحى مشوباً ، ومن طابت أعلاقه زاد نُبله .
 لن تجد رجلاً ضيق الصبر بدائنيه .
 حسبك أن تبيع مرةً ليعدك الناس تاجراً .
 لا تتغالي بتعداد مثالب جارك ، إن كان مثلها فيك .
 إن لم تجد ضالتك في مكان ما ، فأولى لك طلبها في مكان آخر .

مَنْ يقرأ الرّسالة عليه أن ينفذ ما جاء فيها .
 الإناء المستخدم لغايات نبيلة لا يجوز تدينسه في أغراض وضيعة .
 أصلح شأن زينتك أولاً ثم فلتعتن بمظهر الآخرين .
 درهمان في كيس يُجلجلان أكثر من مئة .
 المرء يرى الذرة في عين جاره ، لكنه لا يرى في عينه هو عموداً .
 تناقُس العلماء مدعاة لترقي العلوم .
 إن أفضيتَ بسرك إلى ثلاثة ، دري به عشرة .
 إبان المودة كان لوح مقعد يكفيننا ، فالآن تضيق بنا ساحة ذرعها ستون ؟
 إذا ركبت الخمرة متن الرأس تطايرت منه أسرار النفس .
 إذا تكلم كاذب بصدق ، فجزاؤه عدم تصديق الناس له .
 تمنى الجملُ قرناً ، فإذا به يفقد أذنيه .
 واحسرة على مَنْ ينطفئ ذكره فلا يعود له ظهور .
 الموظف عند ملك يناله من التشريف حظاً .
 لا يمكن لدارس مزاول التجارة ، ولا لتاجر تكريس وقته للدرس .
 لا فائدة لك تُرجى من إشعال مصباحك في غمرة ضوء الهاجرة .
 ذر الثمرة من تلقاء نفسها تدعو بالخير للأوراق .
 اللحم بلا ملح لا يصلح إلا للكلاب .
 لا تأخذنك الثقة بذاتك حتى يحين يوم مماتك .
 ويل لبلد فقد رئيسه ، وويل للمركب لم يبق له ربان .
 من يكثر أكداس اللحم في جسده قطعاً للدود يدخرها .
 اليوم قصير ، والعمل اللازم كثير ، والعامل كسول .
 كُن لرؤسائك مهطعاً ، وبالصغار رقيقاً ، ومع الناس أجمع ودوداً .
 الصمت سياج للحكمة .
 من دون الشريعة تنعدم الحضارة .
 لكل امرئ يومه لا محالة .
 كُن ذليلاً بين الأسود ولا تكن رأساً بين الثعالب⁽¹⁾ .

(1) وثمة مثل في التلمود يناقضه : كُن رأساً بين الثعالب ولا تكن ذليلاً بين الأسود .

- البئر الذي منه شربك لا يجدر بك أن تلقى فيه الحجارة .
كثيراً ما يُفصلُ جلدُ الفلّو سرجاً ليوضع على ظهر أمه .
وِطأةُ الحقيقةِ ثقيلة ، لذا قد قلّ من يحملها .
أقلل من القول وأكثر من الفعل .
من يكثّر من الكلام يزداد وكوغه في المعاصي .
ضَحُّ بمصلحتك في سبيل سواك ، تجدهم يضحون بمصالحهم في سبيلك .
الشرّيعه ادرسها اليوم ، ولا تؤخرها لغد أبداً .
لا تتخذ صلواتك عبئاً ثقيلاً ، بل لتكن ابتها لا تُك صادقة من القلب .
من أحبه الخلق أحبه الخالق .
كرّم أبناء المساكين ، فهم يُشرق للعلم بهاؤه .
لا تتخذ لنفسك جاراً يجمع بين الصّلاح والجهل .
الفلس الصّغير في الجرة الكبيرة مصدر لقرقة عظيمة .
استخدم إثناءك الثمين اليوم ، فلعله ينكسر غداً .
القطّ والجرذ يتصالحان على جيفة .
من جال في أرضه كل يوم عشر على قطعة نقد يوماً .
الكلب يتبعك من أجل الفئات الذي في جيبيك .
الجند يقاسون ويلات الحروب ، أما المجد فمن نصيب الملوك .
عندما يسقط الثور يكثّر جزأوه .
انزل عند اختيار الزوجة خطوة ، وخطوة أصعد عند اختيار الصديق .
اضرب الآلهة يرتعد الكهنة .
الشمس من تلقاء ذاتها تغيب ، بغير معونتك .
لا تؤاخذن إنساناً باللغو في كلامه إبان بلواه .
بعض الناس يأكل وترى سواه يحمد الله .
الكاظمون الغيظ أهل لمغفرة الذنوب .
من يرتكب المعصية مرتين لا يراها عقب ذلك معصية .
يوم تحابينا كنّا ننام على حدّ سيف ، فالآن تضيق بنا أريكة عرضها ستون ؟
دراسة الشرّيعه أعلى شأناً من التضحية .

حلّ بيروشلأيم الخراب من جرّاء إهمال تعليم النّسئ .
 هذه الحياة يُنجيها الله بكرامة أنفاس أطفال المدارس .
 حتى من أجل إقامة الهيكل لا يجوز إقفال المدارس .
 طوبى للابن الذي تفقّه على أبيه ، ومُبارك الأب الذي يفقّه ابنه .
 تجنّب الغضب تنأ عن المعاصي ، ولا تتماذ تنأ عن غضب الرّبّ .
 عندما يُقبل الآخرون أعرِض وتولّ ، وعندما يفترقون فلتقبّل .
 إذا كنت الشاري الوحيد فاشتر ، فإن حضر الشّارون فأمسك .
 السّفية لا تؤثّر فيه الشّيمة ، كما لا يؤثّر حدّ السكّين في جسد الميت .
 الدّيك والبومة يلبثان سهرائين بانتظار الضياء ، فيتعجّب الدّيك : «الضوء
 يُبهجنني ، ولكن ليت شعري ماذا تُراكِ تنتظرين؟» .
 السّارق الذي لا يتسنّى له سرقة شيء يدّعي في نفسه الشّرف⁽¹⁾ .
 قال رجل جليليّ : «إذا حلّ سخط الرّاعي على قطيعه ، عيّن عليه كرازا⁽²⁾
 أعمى» .
 حتى إن لم يكن لزاماً عليك إكمال العمل ، فلا تكفّن عن متابعته . فإن
 كان العمل عظيماً تكون المكافأة عظيمة ، ولو قى سيّدك بدفعاته .
 ثمة تيجان ثلاثة : تاج الشّريعة ، وتاج الكهانة ، وتاج الملكيّة . ولكن ما
 يفوقها جميعاً هو تاج السّمة الطّيبة .
 مَنْ تُراه يحوز الحكمة ؟ مَنْ كان راغباً بتلقّي العلم أنّى كانت مظأنّه . وَمَنْ
 هو القويّ ؟ مَنْ يكظم انفعاله . وَمَنْ هو الغنيّ ؟ مَنْ رضي بنصيبه . وَمَنْ هو
 المستحقّ للتكريم ؟ مَنْ كان يكرّم الناس على اختلاف درجاتهم .
 لا تُحقّرن شأن أحد ولا تحكّمن على شيء بالاستحالة ، فلكلّ امرئ يومه
 ولكلّ شيء موضعه .

(1) الأنكى من ذلك كثير من أهل الصّدارة في عصرنا : يسرقون كل شيء ثم يتنازعون ألقاب
 الشّرف ، وبينهم وبين الشّرف آلاف من الأميال .

(2) الكرازا كيش كبير يجعل في عنقه جرس مجلدل ، يتبعه القطيع في سيره للمرعى .

الحديد يكسر الحجر ، والنار تصهر الحديد ، والماء يُخمد النار ، والغيوم
تبتلع الماء ، والعاصفة تبدد الغيوم ، والإنسان يصمد للعاصفة ، والخوف يقهر
قلب الإنسان ، والخمر يمنع الخوف ، والنوم يغلب الخمر ، والموت سيد للنوم .
«أما البر» - كما يقول شلومو - «فإنجي من الموت»⁽¹⁾ .

كيف يتسنى لك النجاة من ريقة المعاصي ؟ ضع نصب عينيك ثلاثة أشياء :
من أين أتيت ، وإلى أين تمضي ، وأمام من ينبغي لك أن تمثل . أما المستهزون ،
والكذّابون ، والمنافقون ، والمفترّون ، فلا نصيب لهم في نعيم الحياة الآخرة .
وجرم القذف وتشويه سمعة الناس لا يقل عن القتل .
تُب ولو قبل موتك بيوم⁽²⁾ .

أنزلت على هذه الدنيا عشرة أجزاء من الحكمة ، فنالت شريعة بني إسرائيل
تسعة أجزاء ، ونالت بقية الدنيا جزءاً واحداً . وأنزلت على الدنيا عشرة أجزاء
من البهاء ، فنالت يروشلأيم منها تسعة أجزاء⁽³⁾ ، وبقية الدنيا جزءاً .
قال الرأبي شمعون : «تقوم هذه الدنيا على عمود ثلاثة : الشريعة ،
والعبادة ، والإحسان» .

وقال الرأبي آدا : «إن تعود رجل على حضور الجماعة في الكنيس بانتظام ،
وتخلّف عن الحضور لسبب قاهر ، فإن الله يفتقده ويسأل عنه» .
وقال الرأبي شمعون بن يهوشوع : «أي من بنى مكاناً للعبادة تواضع له
أعداؤه» .

وقال الرأبي لكيش : «من كان قادراً على حضور الصلاة في الكنيس ولم
يفعل ، فأى جار سوء هو» .

(1) سفر الأمثال - 10 : 2 .

(2) حاشية على النص : سئل الرأبي الذي قال : «تُب ولو قبل موتك بيوم» من قبل تلاميذه
عن كيف يمكنهم تنفيذ نصيحته ، طالما أن الإنسان يجهل متى يكون يوم موته . فقال :
«عدّ كل يوم يأتيك آخر أيامك ، وتزوّد على الدوام بالتوبة وفعل الخير» .

(3) ما برح قدسنا الشريف مدينة مقدسة لدى الجميع ، ولكن ليت شعري متى نراها ؟

قال الرّابي يوسيه : «ينبغي للمرء ألا يرتقي للصلاة عالياً ، لأنه مكتوب : «من الأعماق صرختُ إليك يا رب»» (المزامير 130 : 1) . والرّابي ذاته يحظر الحركة أو الكلام في أثناء تأدية الصلاة ، وذلك عملاً بتوجيه شلومو : «احفظ قَدَمَكَ حين تذهبُ إلى بيت الله ، فالاستماع أقرب من تقديم ذبيحة الجهّال» (سفر الجامعة - 5 : 1) .

وقال الرّابي حيا بن أبا : «الصلاة بصوت عالٍ ليس أمراً من ضرورات العبادة ، فالأهمّ عندما نُصلي أن نتوجّه بقلوبنا إلى السّماء» .
عندما تحقّق لأجدادنا البرّ في الصحراء عند نظرهم إلى الحيّة النحاسية⁽¹⁾ ، لم يكن الأمر أن الحيّة هي التي كانت تُميت أو تُحيي ، بل كانت التوجّه الصّادق إلى الأب في السّموات .

قال الحاخامات : «احمد الله في السّراء كما تحمده في الضّراء» ، وكانوا يأتون على ذلك بمثال داود : «كابدتُ ضيقاً وحزناً ، وباسم الرّب دعوتُ» (المزامير 116 : 3-4) .

وقال الرّابي أشي : «فضيلة التّصدّق تفوق كلّ ما عداها» .

قال الرّابي إليعيزر : «المتصدّق في السّراء أعظم من مُوشيه» . يستجيز مقولته هذه من كلام مُوشيه (الثّنية 9 : 19) : «لأنّي فزعتُ من الغضب» ، ومن كلام شلومو : (أمثال 21 : 14) بمثابة الجواب : «الهدية في الخفاء تفنأ الغضب» .

وقال الرّابي يهوشوع : «ذو الشّح خبيثٌ كعابد وكن» .

وقال الرّابي إليعيزر : «الصّدقة خيرٌ من التّضحية» .

وقال الرّابي يوحنان : «مَن يُعطي (صدقةً) يَمسي غنياً» ، أو كما هو مكتوب : «والصدّيقون يُجزّون خيراً»⁽²⁾ .

(1) انظر سفر العدد - 21 : 9 : «فصنع مُوشيه حيةً من نُحاس ووضعها على الرّاية ، فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النّحاس يحيى» .

(2) سفر الأمثال - 13 : 21 .

في أحد الأيام سأل بعض المناطقة (الفلاسفة) الرأبي عقيبا : «إذا كان إلهك يحب المساكين ، فعَلامَ لا يكفيهم؟» .

أجاب عقيبا : «إن الله يُبقي بيننا أهل الحاجة والفقير ، لثلاً تضيع الفرصة للإحسان وعمل الخير» .

فرد المنطقي : «ولكن كيف عرفت أن فضيلة التصدق هذه تُرضي الله ؟ فلو أن سيِّداً عاقب عبيده بحرمانهم من الطعام والكساء ، أكان يرضيه أن يطعمهم غيره ويكسوهم؟» .

قال الرأبي : «ولكن افترض بالمقابل أن أبناءً لأب حنون ، لم يعد في وسعه إعالتهم فأضحوا مساكين ، أيزعجه أن تحنّ لهم بعض النفوس الرحيمة فتمدّ إليهم يد العون ؟ نحن لسنا عبيداً لسيِّد قاسٍ ، بل الله يدعونا أبناءه ، كما أننا ندعوه - سبحانه - أبانا» .

قال ربّاه : «عندما يقف المرء أمام عرش الحساب الذي يُقيمه الله ، يُسأل هذه الأسئلة :

أصادقاً كنتَ في مُعاملاتك كلّها ؟
أخصّصتَ طرَفاً من وقتك لدراسة الشريعة ؟
أحافظتَ على الوصية الأولى (لا يَكُنْ لك آلهةٌ أخرى أمامي) ؟
أكنتَ في ساعاتِ المِحْنِ مُحافظاً على صلّتك بالله وإيمانك به ؟
أكنتَ تتفوّه بلسان الحكمة؟» .

* * *

«بركات البيت بأسرها مصدرها الزوجة ، لذا فعلى زوجها تكريمها» .

قال الرّاب : «ينبغي للأزواج أن يحرصوا على عدم جعل نسايتهم يبيكين ، لأن الله يُحصي دموعهن» .

«في أحوال الصدقة التي بها رجال ونساء ، تجب إعانة النساء أولاً . فإن لم يكن ثمة كفاية للطرفين ، وجب على الرجال أن يتنازلوا لهن» .

«موت المرأة لا يشعر بوطأته أحد كما يشعر به زوجها» .

«تُدْرَفَ الدَّمُوعُ عَلَى مَذْبِحِ اللَّهِ عَلَى فِعْلِ مَنْ يَنْبِذُ حُبَّهُ الْأَوَّلَ» .

«مَنْ أَحَبَّ زَوْجَتَهُ كَنَفْسِهِ ، وَكَرَّمَهَا أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ يَهْدُبُ أَبْنَاءَهُ عَلَى نَحْوِ حَسَنِ ، كَمَا يَكُونُ مُوَافِئاً لِلآيَةِ : «فَتَعْلَمُ أَنَّ خِيَمَتَكَ أَمْنَةٌ ، وَتَتَعَهَّدُ مَرِيضَكَ وَلَا تَفْقَدُ شَيْئاً» (أَيُوبُ 5 : 24) .

قال الرَّابِي يُوسِيهِ : «أَنَا لَا أَنَادِي زَوْجَتِي «يَا امْرَأَتِي» ، بَلِ «يَا بَيْتِي» ، لِأَنَّهَا بِالْفِعْلِ أَسَاسُ بَيْتِي» .

«مَنْ كَانَ لَدَيْهِ مَعْرِفَةٌ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَةٌ بِالْإِنْسَانِ ، مُحَالٌ أَنْ يَزِلَّ وَيُذْنِبَ» .

«أُنزِلَتْ عَلَيْنَا التَّوْرَةُ لِإِحْلَالِ السَّلَامِ فِي الْأَرْضِ» .

«مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ وَلَوْ بِأَدْنَى مِنْ فِلسٍ ، فَهُوَ خَبِيثٌ كَقَاتِلِ النَّفْسِ» .

«مَنْ رَفَعَ يَدَهُ فِي وَجْهِ مُحِبٍّ لَهُ فَهُوَ مُقْتَرَفٌ لِلْكَبَائِرِ» .

«لَا تُصَادِقْ مَنْ يَشْتَمِلُ بِثُوبٍ وَلَيْ لِيُخْفِيَ عِيُوبَ جَهَالَاتِهِ» .

وقال الرَّابِي شَمْعُونُ :

«مَنْ تَرَكَ لِنَفْسِهِ حَرِيَّةً أَهْوَانَهَا كَانَ مَثَلَهُ كَعَابِدٍ وَكُنْ» .

«فَضِيلَةُ كَرَمِ الضِّيَافَةِ لَا تَقِلُّ عَنْ دِرَاسَةِ الشَّرِيعَةِ» .

وينصح الرَّابِي يَهُودَاهُ : «لَا تَتَرَكَ نَفْسَكَ أَبَدًا أَمَامَ مَزَالِقِ الْغَوَايَةِ ، فَحَتَّى دَاوُدَ ذَاتَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَقَاوِمَتِهَا» .

أَمَّا الرَّابِي تِيرَا فَلَمَّا سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ أَنْ يَعْلَمَهُمُ السِّرَّ الَّذِي كَفَلَ لَهُ عَمْرًا مَدِيدًا وَسَعِيدًا ، أَجَابَ : «لَمْ أَكُ أَمْعَنُ فِي الْغَضَبِ مَعَ بَيْتِ أَهْلِي ، وَلَمْ أَحْسُدْ أَبَدًا مَنْ كَانَ أَعْلَى مِنِّي ، وَلَمْ أَبْتَهِجْ أَبَدًا لِسُقُوطِ أَحَدٍ مَا» .

«بِئْسَ مَنْ يُنْكَرُ عَلَى الشَّجَرَةِ أَغْصَانَهَا ، وَعَلَى الشَّيْءِ ظِلَّهُ» .

«أَمْسُكْ مَاضِيكَ ، وَيَوْمَئِذٍ مَسْتَقْبَلُكَ ، وَغَدُوكَ سِرٌّ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ» .

«كَفَى بِالْقَلْبِ وَاعْظًا ، وَكَفَى بِالزَّمَانِ مُعْلَمًا ، وَكَفَى بِالدُّنْيَا كِتَابًا ، وَكَفَى

بِاللَّهِ خِلَاً» .

«ما الدنيا إلا دينٌ في رقبة الإنسان ، والموت دائنٌ مُطالبٌ بها يوماً» .
«أسع إلى فهم المرء من خلال فعالة ومقاله ، فأراء الناس مُضلة» .

وقال الرَّابِي يعقوب :

«مَن تسبَّب في عُقوبة شخص آخر ظلماً وبُهتاناً يمكث بظاهر باب الجنة» .

وقال الرَّابِي يصحاق :

«خطايا صاحب المزاج الحاد أكثر من مزاياه» .

وقال الرَّابِي لكيش :

«الرجلُ الخطيء جاهلٌ بقدر ما هو خبيث» .

وقال الرَّابِي صموئيل :

«أفعلننا في هذه الدنيا تتجسد لنا وتشهد علينا في الآخرة» .

«تحمّل الاتهام الباطل في السرِّ خيرٌ من الإفصاح بفعل امرئٍ مُذنب على رؤوس الأشهاد» .

«مَن كان له حياء لا يُبادر إلى ظلم» .

«كُمة فارقٌ عظيمٌ بين مَن يحسّ بالعار والخجل أمام نفسه ، ومَن لا يحسّ بهما إلا أمام الناس» .

وقال الرَّابِي عقيبا :

يتضمّن عهدُ الله إلينا أمرَ العمل ، لأن الوصية القائلة : «ستة أيام تعمل ، وأما اليوم السابع ففيه تستريح»⁽¹⁾ ، تضع «الراحة» شرطاً على «العمل» .

وقال الرَّابِي شمعون في الموضوع ذاته :

«أوصى الله آدم أولاً بجنةٍ عِدِنٍ ليعملها ويحفظها (تكوين 2 : 15) ، ثم عقب ذلك سمح له بالأكل من نتاج عمله» .

(1) سفر الخروج - 12 : 23

قال الرأبي طرفون ١١٦٥ :

«لم يُقم الله بين بني يسرئيل حتى عملوا على استحقاق حضوره ، إذ أمر :
«فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم» (خروج 25 : 8) .

عندما كانت يروشلايم في أيدي الرومان الوثنيين ، تقدم أحد مناطقتهم
(أي الفلاسفة) فسأل الحاخامات :

«إذا كان إلهكم يمقت عبادة الأوثان ، فما باله لا يحطم الأوثان ويستأصل
شأفتها من الأساس؟» .

فأجابه الحكماء : «أتود أيضاً لو تُنسف الشمس والقمر من أجل بعض
الجهال الذين يعبدونهما ؟ إن تغيير مجرى الطبيعة لمعاقبة الخطاة من شأنه أن يعود
بالمعاناة على البريئين أيضاً» .

في سفر قهلت (الجامعة) 9 : 14-15 نجد هاتين الآيتين :

«مدينة صغيرة فيها أناس قليلون ، فجاء عليها ملك عظيم ، وحاصرها
وبنى عليها أبراجاً عظيمة . ووجد فيها رجل مسكين حكيم ، فنجى هو المدينة
بحكمته» .

يفسر الحكماء هاتين الآيتين بشكل جد جميل : ف«المدينة الصغيرة» ما هي
إلا الإنسان ، و«الأناس قليلون» مختلف صفات النفس . أما «الملك» الذي
حاصرها فهو نوازع الشر ، و«الأبراج العظيمة» التي بناها عليها هي «الآثام» .
وأما «الرجل المسكين الحكيم» فما هو إلا «أعمال الخير» التي يمكن لأدنى مسكين
أن يأتيها .

قال الرأبي يهوداه :

«من يُحجم عن تعليم إحدى الوصايا لتلميذه فهو مُدانٌ بجُرم السرقة ،
تماماً كمن يسرق من ميراث أبيه ، كما هو مكتوب : «بناموس أوصانا مؤشيه ميراثاً
لجماعة يعقوب» (سفر التثنية 33 : 4) . ولكن إن هو علمه ، فماذا يكون له من
الثواب؟» .

قال رابا : «ينالُ بركةُ يوسف» .

قال الرّابي إلعيزر :

«البيت الذي لا تُدرس فيه الشريعة بالليل مآله إلى الخراب» .
«الغني الذي لا يُعين طالباً راغباً في دراسة شريعة الله لا يُصيبُ ثروة» .
«مَن دلّس كلامه ، فقال غير ما يفعل ، مثله مثل عابد الأوثان» .

قال الرّابي حاما بن پاپا :

«مَن أكل وشرب دون أن يُبارك اسم الربّ ، هو كمن يسرق ، هذا لأن
«السّموات سموات للربّ ، أمّا الأرض فأعطاها لبني آدم»⁽¹⁾» .

قال الرّابي شمعون بن لكيش :

مَن يُطبّق وصيةَ إلهية في هذه الدّنيا يجدها مسجّلة في أعماله بالآخرة ، كما
هو مكتوب : «ويسيرُ بركُ أمامك ، ومجدُ الربّ يجمعُ ساقَتَكَ»⁽²⁾ . والأمر ذاته
يكون بالعكس لمن يُذنب . لأن في الكتاب المقدّس : «فاحفظ الوصايا والفرائض
والأحكام التي أنا أوصيكَ اليوم لتعملها»⁽³⁾ ، فعليك أن تعملها - أي الوصايا -
اليوم ، برغم أن الثواب عليها ليس موعوداً اليوم وإنما في المستقبل ، فإن عملتَ
الوصايا فهي تشهد لك ، إذ أن «بركُ يسيرُ أمامك» .

ويُطلق الحاخامات لقب أبرار الله على مَن يُؤدّون فلا يفكّرون في الانتقام ،
ومَن يسلكون في محبة الله ، ومَن يحافظون على طلاقة وجوههم في أوقات
الشّدائد والصّعب . وعن مثل هؤلاء كتب يشعيا في سفره : ك«الشمس نوراً في
النّهار»⁽⁴⁾ השמש לאור יומם .

* * *

(1) سفر المزامير - 115 : 16 .

(2) سفر يشعيا - 58 : 8 .

(3) سفر تثنية الاشتراع - 7 : 11 .

(4) سفر يشعيا - 60 : 19 .

أحبّ زوجتك كنفسك ، وكرّمها أكثر من نفسك . فَمَنْ عاش بلا زواج تكون حياته بلا بهجة . وإذا كانت زوجتك صغيرة القَدِّ ، فاشن إليها واهمس في أذنها . ومَنْ يشهد موت زوجته فكأنما يشهد في الواقع خراب الهيكل ذاته . وإن أولاد الرجل الذي يتزوج حباً في المال يُضحون لعنة عليه .

مَنْ كان علمه يفوق عمّله فهو أشبه بشجرة كثيفة الأغصان واهية الجذور ، فأول عاصفة قوية تأتيها تُطيح بها أرضاً . أما مَنْ كانت أعماله تفوق معرفته فهو كشجرة يسيرة الأغصان ولكن قويّة الجذور ضاربة في الأرض ، شجرة لا تقدر على اقتلاعها رياح السماء كلّها .

رُبَّ لعنة تندّ عن صالح خيرٍ من مُباركة تصدر عن خبيث . فكانت مثلاً لعنة أخيا الشيلوني خيراً من مُباركة بلعام بن يعور⁽¹⁾ . فهكذا لعن أخيا اليسرئيليين : «ويضرب الربّ يسرئيل كاهتزاز القصب في الماء» (سفر الملوك الأول 14 : 15) . فالقصب ينثني ولا ينكسر ، إذ أنه ينمو في الماء وجذوره صلبة . أما بلعام فكانت مُباركته ليسرئيل هكذا : «كأرزات على مياه»⁽²⁾ כַּאֲרִזִּים עַל מַיִם ، لكن بما أن شجر الأرز لا ينمو على المياه فجذوره هكذا تكون واهية ، وإذا هبت عليه ريح قويّة تكسر بدداً .



(1) راجع ما تقدّم من ذكره أعلاه في الفصل السادس من القسم الأول ، وكان من حكماء فرعوه إبان ولادة موشيه (موسى عليه السلام) ، فتنبأ ضده وألب فرعوه عليه ، وكان مصيره في النهاية القتل : «أما بلعام بن يعور فقتلوه بالسيف» (سفر العدد - 31 : 8) .

(2) سفر العدد - 24 : 6 .

الجزيرة المهجورة

يُحكى أن رجلاً غنياً ، كان طيب النفس مجبولاً على الإحسان ، رغب بإسعاد عبده ، فوهبه حرّيته وأعطاه فوقها حمل سفينة من البضائع . وقال الرجل للعبد : «اذهب فأبحر في البلاد ، وبع هذه البضائع ، فكل ما تحصله منها خذهُ لنفسك حلالاً طيباً مباركاً لك فيه» .

فمضى العبد مُبحراً في عرض المحيط ، ولكنه لم يكد يتوغّل في سفره حتى هبّت عليه أنواء عظيمة ، فجنحت به السفينة إلى الصخر وتحطمت أشلاءً ، فضاع كل ما عليها من متاع ، ما خلا العبد نفسه ، فسبح إلى شاطئ جزيرة كانت على مقربة . فراح الرجل ، تحت وطأة الحزن والقنوط وفراغ اليد من حُطام الدنيا ، يجول في الجزيرة ، إلى أن أشرف على مدينة رائعة فسيحة ، فخفّ إليه حشدٌ من الناس مُبتهجين وراحوا به يهتفون : «على الرَّحْب والسَّعة ! حَلَّكَتْ أهلاً ونزلت سهلاً ! عاش الملك !» . وجاؤوا بعربة فخمة ، فوضعوها بها ورافقوه إلى قصر فخم ، حيث خفّ به الكثير من العبيد ، وألبسوه حُللاً ملكيةً ، وراحوا يخاطبونه بشعار الملك ، ويُعربون عن انصياعهم التام لرغباته كلّها .

عقدت الدهشة لسان العبد وأخذته العجب كل ماخذ ، وخيّل له أن كل ما رآه وسمع به وشهده كان محض حلم عابر . فلماً أيقن بحقيقة الأمر وبواقعية ما يجري أمامه ، قال لبعض الرجال حوله تَمَنُّ أنس فيهم مودةً وقرباً :

«ما الأمر بالضبط ؟ لست بفاهم شيئاً . ما لكم تُسودون وتشرّفون رجلاً لا تعرفونه ، جوالاً عاري البدن لم تروه في حياتكم قطّ ، فتجعلونه عليكم حاكماً وملكاً ؟ إن هذا لَمَما يُدهشني إلى درجة العجز عن التعبير» .

فأجابوا : «إن هذه الجزيرة ياسيدي يقطنها الجان ، وطالما كانوا يتضرعون إلى الله أن يُرسل إليهم في كل سنة واحداً من أبناء البشر ليتولّى عليهم . فكان أن استجاب الله لدعائهم ، وجعل يُرسل إليهم في كل عام أنسياً ، فكانوا يتلقونه بالاحترام والتشريف وينصبونه على عرش مدينتهم ، غير أن شرط هذا التكريم والسلطة أنه يزول مع انقضاء الحول . إذ عند اختتام سنة تؤخذ منه حلّله الملكية ،

ويُطرح على متن سفينة فيُحمل إلى جزيرة واسعة ومهجورة ، حيث يتعين عليه ، إن هو لم يهَيئ لنفسه أموره بحكمة ، أن يعيش بمفرده حياةً بائسة تعيسه ، بلا رفيق أو أنيس . ثم يُنصبُ ملكٌ جديد ، وهكذا تكررُ السَّنون دواليك . هذا وإن الملوك الذين سبقوك كانوا غير أبهين أو مكثرئين للأمر ، فكانوا ينغمسون في ملاذ سُلطتهم ويتقلَّبون في نعمائها ما حلا لهم أن يفعلوا ، ولا يتفكِّرون في اليوم الذي تزول فيه من أيديهم . لذا فكُن أنت حكيماً ، وانظر ما تفعل .» .

فكان أن استمع الملك الجديد بانتباه إلى مقالهم أجمع ، وندم حتى على الوقت الذي ضيَّعه قبل ذلك دون أن يهَيئ لنفسه مرفقاً ، من قبل أن يزول عنه سُلطانه .

فخاطب الحكماء الذين تكلموا ، قائلاً : «أشيروا علي يا ذوي الحكمة ، كيف لي أن أهَيئ من أمري لأيامي القادمة في مُستقبلي ؟» .

فأجاب أحدهم : «كما جئنا عارياً ، فعارياً تُغادرنا إلى الجزيرة المهجورة التي أنبأْتُك عنها ، أما الآن فأنت الملك وبمقدورك أن تفعل ما يحلوك ، لذا فأرسل عمالاً إلى هذه الجزيرة ، ومرهم ببناء الدُّور وفلاحة الأرض وتجميل المكان . فتحوّل التربة الجرداء إلى حقول خصيبة ، ويرتحل الناس إليها للعيش ، فتجد لنفسك مملكةً جديدة ورعيةً يتلقونك بالابتهاج والتكريم عندما يزول من هنا سُلطانتك . إن السنة قصيرة ، والعمل كثير ، لذا فشدَّ العزم وكُن نشيطاً» .

فاتبع الملك مشورته ، وأرسل الفعلة والمواد اللازمة إلى الجزيرة النائية ، التي ما لبثت قبل انقضاء مُدة سُلطانه المؤقت أن أضحت مكاناً زاهراً وماتعاً بكل ما تشتهي النفس . كان الملوك الذين سبقوه يتوجسون ويتحسبون ليوم انقضاء سُلطانهم بالجزع ، أو يتجنبون التفكير به ، فأما هو فكان يتطلَّع إلى ذلك اليوم كيوم فرح وابتهاج ، يدخل فيه حياةً مديدة من الرغد والأمان .

فلما جاء اليوم الموعود ، جرد العبد العتيق الذي أضحي ملكاً من سُلطانه ، وزال عنه مع سُلطانه هذا لباسه الملكي ، وطرح عارياً على متن سفينة ، ووجَّهت أشرعتها صوب الجزيرة المهجورة .

غير أن الرجل عندما أشرف على ساحلها ، إذا بالناس الذين أرسلهم إليها
يأتون لاستقباله بالعزف والتهايل والفرحة العارمة . ونصّبوه عليهم أميراً ،
فعاش بينهم مقيماً بالرّضا والحبور ما شاء له أن يُقيم .

فالرجل الغني المحسن ما هو إلا الله ، والعبد الذي أعتقه ما هو إلا الروح
التي يعطيها الله للإنسان . أما الجزيرة التي أتاها العبد فهي الحياة الدّنيا ، يأتيها
الإنسان عارياً وباكياً أمام أهله ، يُكنّى عنهم بسكّان الجزيرة الذين يستقبلونه بكلّ
حفاوة ويجعلونه ملكاً بينهم . أما الأصحاب الذين يخبرونه عن أمور البلدة فما
هم إلا «نوازع فطرته الطيبة» . وسنة سلطانه هي دور حياته ، وأما الجزيرة النائية
فهي العالم الآخر ، الذي ينبغي له أن يجمله بأعمال الخير ، أي بـ «الفعلّة والموادّ
اللازمة» ، وإلا عاش وحيداً طريداً إلى أبد الدهر .

* * *

الإمبراطور والعجوز

يُحكى أن الإمبراطور هادريانوس عندما كان مجتازاً ببعض شوارع طبرية
أبصر رجلاً عجوزاً طاعناً في السنّ يفرس شجرة تين ، فتوقّف وقال للرجل : «لِمَ
تفرس هذه الشجرة ؟ لو عملت شاباً لأضحت لك في شيخوختك ذخيرةً تتعيش
منها ، أما الآن فلا ريب أنك غير مُدركٍ ثمار هذه الشجرة» .

فأجاب العجوز : «في شبابي عملتُ ، وما زلتُ إلى الآن أعمل . وبيذن
الله أكلُ من ثمر هذه الشجرة التي أغرسها . فييده هو مصيري» .

قال الإمبراطور : «قل لي كم عمرك» .

«غبرتُ في هذه الدّنيا مئة عام» .

«لك من العمر مئة عام ، ولا تزال تأمل الأكل من هذه الشجرة ؟» .

أجاب العجوز : «إذا كانت هذه إرادة الله ، وإلا تركتها لابني ، كما ترك

لي أبي ثمار عمله من قبل» .

قال الإمبراطور : «طيب ، إن أنت عشتَ بالفعل حتى تحمل هذه الشجرة وتثمر ، فأرجو منك أن تعلمني بهذا» .

ويُحكى أن العجوز امتدّ به العمر حتى حملت الشجرة وأثمرت ، فتذكر كلام الإمبراطور وقرّر زيارته ، فأخذ بيده سلّة⁽¹⁾ صغيرة ، وملأها بأطيب ثمار تلك التينة ، ومضى لطيبته . فلما وصل وأطلع حراس القصر⁽²⁾ على مسأله ، سمح له بالمشول بين يدي الملك .

قال الإمبراطور : «أذن أيها الشيخ ، ما هو مطلبك ؟» .

فأجاب العجوز : «ما أنا يا مولاي إلا العجوز الذي قُلتَ له يوماً : «إن عشتَ حتى تحمل هذه الشجرة وتثمر ، فأعلمني بهذا» . فها أنا ذا أتيتُ وجلبتُ لك بعضاً من ثمارها ، لتأكل منها أيضاً» .

فسرّ الإمبراطور غاية السرور ، فأمر بإفراغ سلّة الرجل من تينها ، وأمر بملئها له حتى أعلاها بالقطع الذهبية .

فلما مضى العجوز ، قال بعض أفراد البطانة للإمبراطور : «لماذا أكرمتَ هذا اليهودي العجوز إلى حدّ بالغ ؟» .

أجاب الإمبراطور : «إن كان الله أكرمه ، أفلا أكرمه أنا ؟» .

ويُحكى أنه كانت بجوار هذا العجوز تعيش امرأة ، فلما نمي إليها خبر سعد جارها رغبت إلى زوجها بأن يجربَ حظّه في السّياق ذاته . فملأت له سلّة عظيمة بالتّين ، وطلبت إليه حملها على كتفه وقالت : «هيا ، احملها إلى الإمبراطور ، فهو يحبّ التّين وسيملاً لك سلّتك بالقطع الذهبية» .

فلما بلغ الزوج أبواب القصر ، أطلع الحراس على شأنه قائلاً : «قد جلبتُ للإمبراطور تيناً كما ترون ، فأرجوكم أفرغوا سلّتي واملأوها بالذهب» .

(1) العبارة في العبرية : 50 سل ، تتعارض مع العبرية ، وإن كان بصيغة المذكّر .
(2) هل ترك الإمبراطور هادريانوس روما ليقوم هنا ؟ هذه حكاية أسطورية نعم ، لكن الطامة أن كثيراً من التراث الديني تتم صياغته وقولته هكذا ليصير مقدّساً !

فلماً وصل الخبر إلى الإمبراطور ، أمر بالعجوز أن يقف أن يقف في رواق القصر ، وأن يقذفه كل من مرّ بشمارتينه . فعاد إلى بيته طافحاً بالكدمات مكسور الخاطر ، ليلاقى زوجته الخائبة الرجاء .

فقلت : «لا تهتمّ ، ولك ثمّة عزاءٌ يرضيك ، فلو كان ما تحمل ثمار جوز الهند عوضاً عن التين ، لكنت نلت من اللطم أضعافاً» .

* * *

بَيِّنَةٌ عَلَى مَلَكِيَّة

يُحكى أن أحد أبناء يروشلايم كان مُسافراً ، فأصابه المرض في نُزُلٍ على الطريق . وإذا أحسَّ الرَّجُلُ أن نهايته قد دنت ، دعا بصاحب النُّزُلِ وقال له : «إنني لا مَحَالَةَ مُلاقٍ حتفي ، فإن أتى بعد موتي أيّ أحد ليطلب بتركتي ، فلا تسلمه شيئاً حتى يُيدِي لك ثلاث علامات حكمة تدلّ على أنه بها جدير ، هذا لأنني أوصيتُ ابني قبل خروجي مُسافراً ، بأنه إن حلّ بي الموت فعليه أن يُيدي علائم للحكمة قبل أن يرث ممتلكاتي» .

ومات الرَّجُلُ ، فدُفِنَ حسب الشّعائر اليهوديّة ، وتمّ إعلان موته على الملا كما يحضر ورثته . فلماً دري ابنه بوفاته انطلق من يروشلايم إلى حيث مات ، وقرب أبواب المدينة لقي رجلاً معه حمل حَطَبٍ للبيع ، فاشتري هذا الحمل وطلب تسليمه في النُّزُلِ الذي كان متوجّهاً إليه . فقام الرَّجُلُ الذي ابتاع منه بقصد النُّزُلِ على الفور ، وقال : «ها هو ذا الحطب» .

أجاب صاحب النُّزُلِ : «أيّ حَطَبٍ ؟ ما طلبتُ حطباً» .

أجاب الحطّاب : «بل طلبه الرَّجُلُ الذي يأتي الآن خلفي ، سوف أدخل وأنتظره» .

على ذلك ، أمّن الابن لنفسه من يتلقاه بالترحاب عندما يصل النُّزُلُ ، فكانت تلك أولى علائم حكمته .

قال له صاحب المكان : «مَنْ أَنْتَ؟» .

فأجاب : «ابن الرجل الذي توقّي في نُزُكك» .

فأعدّوا له عشاءً ، ووضَعوا على المائدة خمس حمامات ودجاجة . وقعد معه إلى المائدة كلٌّ من صاحب المكان وزوجته وابنيه وابنتيه .

قال الرجل للضيف : «فلتقسمِ الطعام» .

قال الشاب : «أنتَ السيّد هنا ، وهذا حقٌّ لك وليس لي» .

فقال الرجل : «أرغبُ إليك أن تفعل ، فأنت ضيفي ابن التاجر ، هيا . . أرجوك أن تقسم علينا الطعام» .

فلمّا رأى الشاب منه إلحاحاً ، قدّم حمامة للابنين ، وأخرى للبتين ، وقدّم الثالثة للرجل وزوجته ، وأبقى لنفسه الحمامتين الباقيتين . فكانت هذه العلامة الثانية على حكمته .

فبدا صاحب النُزُك مُمتعضاً بعض الشيء من هذه الطريقة في التّقسيم ، ولكنه لم يفتح فاهُ بكلمة .

ثم قام ابن التاجر باقتسام الدجاجة ، فأعطى للرجل وزوجته الرأس ، وللابنين الفخذين ، وللبتين الجناحين ، وأبقى لنفسه بَدَن الدجاجة⁽¹⁾ . فكانت تلك العلامة الثالثة على حكمته .

(1) يرد أمثال هذه القصة في مجاميع الأدب العربي المؤلّفة في عهود الإسلام الأولى ، مثل : «زهر الآداب» للحصري القيرواني ، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي ، و«المستطرف» للأبشيهي . فهذا دليل على أن مصدر المرويات كان من التراث القائم في المشرق قبل أن تشيع الكتابة بالعربية ، كقصص التلمود والمدراش (التأقلة عن الهند وفارس) ، والقصص الديني السرياني . ولا ريب أن للتراثين الأدبي والديني تمازجاً أكيداً . نقول : ليس هذا عيباً ، فلا يسوء بأية لغة الاقتباس والتأثر ، إنما الخطير ظهور طبقة من الباحثين ، كالألمانين أبرهام غايغر وتيودور نولدكه والمجري إكناثس گولدتسيهر ، وبأيامنا جوزيف قزي (أبو موسى الحريري) وكريستوف لوگسنبرغ (اسم مُستعار) ، راحوا يرمون النصّ القرآني ذاته بتهمة الانتحال والتقل . فلاقى ذلك أصداءً ، مع فشل لدينا في الرد ، لندرة من يجيد علوم الفيلولوجيا والنقد النصّي وفقه اللغات السامية !

فقال الرَّجُلُ : «أهكذا تكون القسمة في بلدكم ؟ رأيتك وأنت تقسم بيننا الحمَّامات ، فلم أتكلَّم . أما دجاجتي يا سيِّدي العزيز ، فلا بُدَّ لي أن أسألك عن تعبير أمرها» .

فأجاب الشابُّ قائلاً :

«سبق أن قلتُ لك إن القسمة ليست من شأني ، لكنك عندما أصررتُ فعلتُ ما بوسعي ، ولعلِّي أصبتُ في قسمتي هذه . فأنت وزوجتك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابناك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابنتاك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وأنا وحمامتان فهذه أيضاً ثلاثة ، فلعمري أنها لقسمةٌ حقٌّ . أما بخصوص الدَّجاجة ، فأعطيتُك وزوجتك الرأس ، لأنكما رأسان في البيت . وأعطيتُ كلاً من ابنيك فخذاً ، لأنهما عمودا البيت ، وبغيرهما لا يدوم اسم العائلة . أما ابنتاك فأعطيتُ كلَّ واحدةٍ منهما جناحاً ، لأنهما بطبيعة الحال سوف تتزوجان ، فيصير لهما أجنحة ويطيران من عُشِّ الأسرة . وأما بَدَنُ الدَّجاجة فأخذتهُ لنفسِي لأنه يُشبه شكل السفينة ، طالما أنني جئتُ إلى هنا بسفينة وأمل الرجوع بسفينة . ولإني لأبْنُ التَّاجر الذي توفي في بيتك ، فهاتِ أعطني ملكية أبي المتوفى» .

قال صاحب البيت : «دُونك هي حلالاً لك ، فامضِ راشداً» . فاستلم الشابُّ تركة أبيه ومضى سالماً غانماً .

رُدُّ دَيْنٍ

يُحكى أن رجلاً من أبناء أتيناً⁽¹⁾ (مدينة قرب يروشلايم) زار يروشلايم ، وبعد أن غادرها راح يُزري بها وبأهلها . فاغتاظ اليروشلميون أيما غيظ إذ صاروا عُرْضةً لسخريته ، فحثوا أحد أبناء مدينتهم على السفر إلى أتيناً ، ليغري الرَّجُل بالعودة إلى يروشلايم ، فيتسنى لهم أن يفحموه ويردّوا على إهاناته .

(1) كذا بالأصل ، ولعل المقصود «تمنات» (باللاتينية Thamna) بين القدس و نابلس .

فقام اليروشلّمي قاصداً أتينا ، وسرعان ما التقى بالرجل الذي يريد . فلمّا كانا في بعض الأيام يتمشيان في الطرقات ، قال اليروشلّمي : «مهلاً ، قد انقطع سير حذائي ، فأرجوك حُدني إلى الإسكاف» .

فأصلح الإسكاف سير حذائه ، وإذا بالرجل يدفع له قطعة نقد تفوق ثمن الحذاء ذاته .

في اليوم التالي ، لما كان الرجل يتمشى مع صاحبه تعمّد قطع سير الفردة الثانية من الحذاء ، فلمّا قصدا الإسكاف من جديد ابتدره بالمبلغ الوافي ذاته على إصلاحه .

قال الاتيني : «مَهْ ، لا بُدَّ أن الأحذية غالية الثمن للغاية في يروشلايم⁽¹⁾ ، ما دمت تدفع هذا المبلغ الكبير لإصلاح مجرد سير!» .

أجاب الآخر : «نعم ، فهي تساوي تسع دوكات ، وحتى في أيام الرخص لا يقل ثمنها عن سبع أو ثمان» .

«ما دام الأمر كذلك فلا ريب أنها تجارة مُجزية لي بأن أورد أحذية من مدينتي وأبيعها في مدينتك» .

«نعم وأيمُ الحقّ ، ولكن لعلك تُبشني بمجيئك أولاً كيما أرتب لك أمر التعرف إلى الزبائن» .

وهكذا ، قام الرجل الذي هزئ باليروشلّمين بابتياح بضاعة كبيرة من الأحذية ويمّم وجهه شطر يروشلايم ، بعد أن أرسل إلى صاحبه يُنبئه بقدومه . فخرج هذا الأخير إلى استقباله ، فلقيه قبل وصوله إلى أبواب المدينة ، وابتدره قائلاً :

«يقتضي العرف في يروشلايم أن أيّ غريب يدخلها بغرض الاتجار ، عليه أن يحلق رأسه ويُسخّم وجهه . فهل أنت جاهز لمثل ذلك؟» .

(1) أشرنا في المقدمة أننا نتهج عند الترجمة مبدأ إيراد جميع المفردات والمصطلحات والأسماء بمنطوقها الوارد في نصّها . أما اسم المدينة لدينا فهو : القدس الشريف .

أجاب الآخر : «ولمَ لا ؟ طالما أنني أتوخى أرياحاً جزيلة ، فما الذي يمنعني أو يؤخرني عن أمر بسيط كهذا؟» .

وهكذا ، بادر الرجل إلى حلق رأسه وتسخيم وجهه (بما جعل يروشلايم كلها تُدرك بأنه هو من ازدري المدينة وأهلها) ، ومكث في السوق وبضاعته أمامه مُزجاة .

فراح الشَّارون يمرّون به ويسألون : «بكم الأحذية؟» .

فيجيهم : «بعشر دُوكات ، أو ربما بعثُ بتسع ، ولكن ليس أبداً أقلّ من ثمان» .

فكان ذلك يُثير موجات من الضحك والقهقهة والصخب في السوق ، ثم طردوا الرجل منه تحت صيحات السخرية ، ورموا بأحذيته في أعقابه .

فطلب الرجل البيروشلمي الذي غرّبه ، وقال له : «ما حمّلك على أن تفعل بي ذلك ؟ أرايتني أهنتك في أتنا؟» .

أجاب البيروشلمي : «فليكن هذا لك درساً ، ولا أظنك تُعاود الهُزء بنا بعد الآن أبداً» .

* * *

ابن عرس والبئر

يُحكى أن شاباً صادف أثناء ارتحاله في البلاد فتاةً صبيّة ، فما لبثا أن وقعا في الهوى . فلما توجّب على الفتى مبارحة المنطقة التي تُقيم فيها الفتاة ، التقى العاشقان ليقولا كلمة الوداع . فعندذاك تبادلوا العهد بالوفاء ، ووعد أحدهما الآخر بأن يمكث بانتظار حبيبه إلى أن تسمح لهما الأقدار بالزواج . وقال الفتى : «فمن يشهد على خطوبتنا هذه؟» . فإذا بهما يبصران ابن عرس يمرّ أمامهما ويختفي في الأجمة . فأردف الفتى : «أترين ؟ ابن عرس هذا مع البئر الذي نقف عنده يشهدان على خطوبتنا» . ثم تفارقا .

وكرت السنون ، فطلت الفتاة وفيّة على العهد ، أما الفتى فتزوّج . وبعد مدة وكّد له ابن ، وراح يكبر تحت أنظار والديه المسرورين . وفي بعض الأيام كان الصبيّ يلعب فناله التعب ، فاستلقى على الأرض ونام ، فعضّه ابن عرس في رقبته فنزف حتى مات . وكابد قلبا الأبوين من جرّاء هذه الفاجعة غاية الحزن والمشقة ، ولم يستكن بالهما حتى رزقا بطفل آخر . ولكن لما صار بإمكان هذا الابن الثاني المشي بمفرده راح يتجوّل خارج البيت ، وإذا انحنى أمام البئر ليتفرّج على صورته في الماء فقد توازنه وانقلب في البئر وغرق .

عندها ، تذكّر الأب عهده الذي حنث به ، وتذكّر شاهده : ابن عرس والبئر . فأخبر زوجته بالقصة ، فوافقت على الطلاق . ثم مضى طالباً الفتاة التي وعدها بالزواج ، فوجدتها ما زالت قائمة على عهدها تنتظر رجوعه . وروى لها كيف أنه من خلال إرادة الله قد عُوقب على ما جناه من ذنب ، وبعد ذلك تزوّجا وعاشا بسعادة ووثام .

* * *

الوريث الشرعي

يُحكى أن يسرئيلياً حكيماً ، يقطن على مرحلة من يروشلايم ، أوفد ابنه إلى المدينة المقدّسة لمتابعة دراسته . فخلال غياب الابن حلّ المرض بالأب ، ولما أحسّ بدنوّ أجله كتب وصيته ، تاركاً كل ما يملك لواحد من عبيده ، بشرط أن يسمح لابنه أن يختار أيّ غرض فرديّ يُعجبه من الإرث .

فحالما توفي الأب قام العبد مُبتهجاً بحظّه الفائق ، وهرعَ إلى يروشلايم فأخبر ابن سيّده الرّاحل بما جرى ، وأطلعه على الوصية .

فصُعق الابن وتألّم للخبر ، وبعد مُضيّ المدة المعيّنة للحداد راح يتفكّر ملياً في أمره . فمضى إلى معلّمه ، وشرح له مُلابسات الأمر ، وقرأ عليه وصية أبيه ، وجعل يندب إليه حظّه بضياح ما كان يؤمّله من أمر إرثه ، متعجباً من أنه لم يأت ذنباً يُغضب أباه ، وراح يتمادى في امتعاضه على هذا الجور .

قال المعلم : «حسبك فاصمت ، ما كان أبوك إلا امرءاً حكيماً ووالداً عطوفاً . وما هذه الوصية إلا شاهداً حياً على حسن فهمه ويُعد رؤياه . فلعل ابنه يكون بمثل حكمته يوماً» .

تعجب الفتى قائلاً : «ماذا ؟ لست أرى أية حكمة في وهب ملكيته أجمع لعبد من عبيده ، ولا أي محبة في تجاهله هذا لابنه الوحيد» .

أجاب المعلم : «اسمع ، من خلال هذا الفعل بالذات عمد أبوك إلى أمر واحد فحسب ، ألا وهو تأمين تسليم إرثك إليك دون سواك ، إذا كنت بما يكفي من الحكمة لتستفيد من ذكائه . فلا بد أنه قال لنفسه عندما أحسّ بيد الموت تقترب منه : «ابني الآن بعيد ، وعندما أموت سوف لن يكون حاضراً ليتولّى شأن ما أملك ، ولا ريب أن عبيدي سيُسارعون إلى انتهاب أملاكى ، وحتى أنهم قد يُخفوا عن ابني خبر موتي ليكسبوا مزيداً من الوقت ، ويحرموني من طعم العزاء والسُّلوان بحضور ابني» .

«فليدراً هذا كله ، أوصى بملكه إلى عبده ، موقناً بأن هذا الأخير إذ يظنّ بحقه السّافر في الأمر سيخفّ إلى إبلاغك على وجه الأمر ويحافظ على الممتلكات ، كما رأيته فعلاً بالضبط» .

«طيب . . طيب ، وفيم تُراه ينفعني هذا كله الآن؟» . بادر التلميذ النافذ الصبر مقاطعاً .

أجاب المعلم : «أها . . أرى أن الحكمة لا تسكن عقول الشباب ! أما علمت أن ما يملكه أيّ عبد إنما هو مُلكٌ خالصٌ لسيّده ؟ أولم يترك لك أبوك حرية اختيار الشيء الذي ترضاه من تركته كلها حلالاً طيباً لك ؟ فما عليك إلا اختيار العبد بمثابة حصّتك المُرتضاه ، فيكون امتلاكك له ضماناً لاسترجاع كل ما كان لأبيك . فهذا هو مقصده الحكيم والرؤوف» .

ف فعل الفتى بنصيحة المعلم ، وأطلق بعدها للعبد حرّيته . ولكنه منذ ذلك اليوم طفق يردّد : «الحكمة حُكراً على الشيوخ ، والفهم لا يأتي إلا بطول الأيام ومكابدة الحياة» .

لا شيء في الدنيا بغير نفع

يُحكى أن داود ملك إسرائيل كان في بعض الأيام مُضطجعاً على أريكته ، يتفكر ويتأمل في العديد من شؤون هذه الحياة . فقال في نفسه : «ما هو نفع العنكبوت في هذه الحياة ؟ لا أرى لها شيئاً سوى تكويم الغبار والأقذار في الدنيا ، فتشوه كل مكان وتأتى عنها كل إزعاج» .

ثم قعد يتفكر بالجنون ، فقال في نفسه : «كم هو تعس منكود الحظ ! أفهم أن جميع الأشياء تُرتب بأمر الله بنظام وتوفيق تامين ، أما هذا فيخرج عن نطاق مداركي ، إذ كيف يولد بعض الناس حمقى أو يُصابون بالجنون ؟» .

ثم أخذ البعوض يزعجه ، فراح الملك يتساءل : «وما هو نفع هذا البعوض أيضاً ؟ ما هو موجب خلقه في هذه الدنيا ؟ إنه لا يؤدي إلا إلى إقلاق راحتنا ، وليس للدنيا من وجوده أي فائدة» .

غير أن الملك داود عاش بعدُ ليُدرك أن هذه الحشرات بالذات ، وأن الحكمة من ترتيب الحياة ، وأن الكائنات ذاتها التي راح يستنكر وجودها ، إنما تمّ تسخيرها لمنفعته الشخصية بالذات .

فلما هرب داود من وجه شاؤول ، ألقى إخوة جليات القبض عليه في أرض الفلسطينيين ، فأخذه إلى ملك جت ، فلم يتسن له الإفلات من حومة الموت إلا بادعاء الجنون ، فأقرّ الملك بأن رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون الملك داود ، كما هو مكتوب : «فغير عقله في أعينهم ، وتظاهر بالجنون بين أيديهم ، وأخذ يُخربش على مصاريع الباب ، ويسيل ريقه على لحيته» (صموئيل الأول 21 : 13) .

وفي واقعة أخرى ، اختبأ داود في مغارة عدلام (1) ، فكان أن عنكبوتاً أتت إثر دخوله تسج على باب المغارة خيوطها . فمرّ ملاحقوه المطالبون بدمه بذلك المكان ، فتجاوزوا عنه على اعتبار أنه لا يمكن لأحد أن يلج مغارة قد نسجت عليها العنكبوت ، من غير أن يهتك خيوطها .

(1) راجع حول هذه الواقعة سفر صموئيل الأول - 22 : 1 ، لكن رواية العنكبوت ليس فيه ، بل هي تراث شفهي الأصل من أجداء التلمود والمدرّاش .

وكذلك كان البعوض في خدمة داود عندما دخل معسكر شاؤول ، لكي يحصل على أسلحة هذا الأخير . فلماً كان يتسلل أمام أنبیر النائم ، تحرك هذا وإذا به يضع ساقه على جسد داود . فلو أنه تحرك كان أوقف أنبیر ولاقى حتفه ، وإن بقي على وضعه ذاك لطلع عليه الصبح وكان القتل نصيبه ، فلم يدر ما يفعل وإذا ببعوضة تحطّ على ساق أنبیر ، فهزّها بسرعة ونجا داود .

ولذلك أنشد داود يقول : «جميع عظامي تقول : ياربّ من مثلك»⁽¹⁾ .

* * *

عاقبة الإيمان

كان اليسرئيليّون أمروا بزيارة يروشلايم في ثلاثة أعياد . فحدث في إحدى الأيام أن الماء شحّ في المدينة ، فمضى واحد من الناس يلتمس من بعض الأعيان الذي كان له ثلاثة آبار بأن يسمح لهم بالاستقاء من مائها ، واعدأ بإعادة ملئها في موعد معيّن ، ومتعهداً في حال عدم توفر الماء بدفع مبلغ كبير من الفضة برسم التعويض . فلماً حلّ الموعد المعيّن ، كانت الدنيا ممحلة ولم ينزل المطر ، وكانت الآبار الثلاثة خالية من الماء . ففي الصبح أرسل صاحب الآبار يطلب المال الموعود . فأجاب تقديمون بن جوريون ، وهو الرجل الذي تولّى هذا الواجب من أجل صالح الناس : «النهار ما زال في أوّله ، وثمة وقت بعد» .

فدخل الهيكل وراح يتضرّع إلى الله بأن يرسل المطر ، ويبقى له ماله الذي غامر بفقده بأكمله . واستجيب لدُعائه بالفعل ، فتجمعت السحب وهطل المطر مدراراً . وفيما كان خارجاً من الهيكل بقلب مُفعم بالرضا ، إذا به يقابل دائنه الذي ابتدره قائلاً :

«صحيح ، لقد ملأ المطر آباري ، ولكن ها قد حلّ الظلام ومضى النهار ، وحسب اتفاقنا يبقى لزاماً عليك أن تدفع لي المبلغ الموعود» .

(1) سفر المزامير - 35 : 10 .

فدعا تقديمون مرةً أخرى ، وإذا بالسَّحْب تنجلي ، فبانَت الشمس المائلة نحو المغرب وألقت بأشعتها الذهبية على المكان الذي كان يقف فيه الرَّجُلان ، فدلَّت على أن نور النَّهار لما ينقضي بعد ، ولو أن السَّحْبُ الماطرة كانت لبعض الوقت أظلمت ألقه .

* * *

أبتينوس وجَرَمَاه

كانت عائلة تُعرف بآل أبتينوس ، يجيد أفرادها صناعة البخور المُستخدم في الصَّلَاة . وكانوا يَضُنُّون بتعليم أيِّ إنسان معرفتهم ، فخشي قِيمُو الهيكل أن تبيد هذه الصنعة عند موت هؤلاء ، فصرفوهم من الخدمة ، وأتوا بناس آخرين من الإسكندرية في مصر بُغية تحضير اللِّبان المعطر . غير أن هؤلاء لم ينالوا رضا النَّاس ممَّا اضطرَّ القوامين إلى إعادة الخدمة لأيدي آل أبتينوس ، الذين من جهتهم رفضوا قبولها مجدداً ، ما لم تُضاعف لهم مكافأة خدماتهم .

فلمَّا سئلوا عن سبب إصرارهم على رفض تعليم فنونهم للآخرين ، أجابوا بأنهم يخشون إن هم علّموا بعض النَّاس غير المُستأهلين ، أن يبادر هؤلاء فيما بعد إلى استخدام معرفتهم في عبادة وثنية . وكان أفراد هذه العائلة حريصين غاية الحرص على عدم التطيَّب بأيِّ من نوع من الطُّيوب ، لثلا يقر في ذهن النَّاس بأنهم يستخدمون الأطياب العطرية المُستخدمة في صناعة البخور لأغراض دنيئة .

وثمة مثال شبيه بذلك فيما يتعلَّق بآل جَرَمَاه ، الذين كانوا يحتكرون معرفة صنع خُبز التَّقْدِمة المُستخدم في صلوات الهيكل .

وحول هذين المثالين كان قول ابن عَزَّاي : «باسمك ينادونك ، وفي مدينتك يُسكنونك ، ومن مالك يُعطونك» ، بمعنى أن الثِّقات ينبغي لهم ألا يخشوا غَضَب الآخرين حرفتهم . وعبارة «فباسمك ينادونك» ، كما جرى مع آل أبتينوس وجَرَمَاه ، «ومن مالك يعطونك» ، تعني أن ما يكسبه المرء يكون له حلالاً طيباً ، لا يحقُّ لأحد أن يتزعه منه .

الوثوق بالله

يُحكى أن الرّابي يوحنا بن ليثي صام وصلّى للرّب لكي يُجيز له رؤية إياهو⁽¹⁾ الملك ، الذي رُفِعَ حيّاً إلى السّماء . فاستجاب الله لدُعائه ، فظهر له إياهو على هيئة رجل .

توسّل الرّابي إلى إياهو قائلاً : «دعني أتبعك في طوافك عبر البلاد ، وأراقب أحوالك وأفعالك ، فأكسب لنفسي حكمةً وفهماً» .

قال إياهو : «لا ، فأفعالي لا سبيل لك إلى فهمها ، وتصرفاتي لا صبر لك عليها ، فكيف تصبر على ما ليس لك به علم ؟» .

لكن الرّابي أقام على توسّله : «لن ترى مني أيّ إزعاج أو تساؤل ، لكن اسمح لي أن أتبعك في دربك» .

قال إياهو : «إذا هَلَمَّ ، ولكن ليلزم لسائلك الصّمت ، وعند أوّل سؤال تسألني ، أو أوّل إشارة تعجّب منك ، فهو الفراق ما بيننا» .

فجال الاثنان معاً عبر البلاد ، وبلغا بيت رجل فقير ، لم يكن يملك من المال وأسباب الرّزق سوى بقرة . فلما اقتربا خفّ الرّجل وامرأته إلى استقبالهما واستحلفاهما بالدخول إلى كوخهما وتناول الطّعام والشّراب من الميسور لديهما ، ويأن يمضيا اللّيل تحت سقّهما . فهذا ما كان ، فلحقيا كل حفاوة من مُضيفيهما الفقيرين الكريمين . وفي الصّباح قام إياهو مبكراً يصليّ ، فما إن فرغ من صلاته حتى وقعت بقرة الفقيرين ميتةً . ومضى الرّفيقان في رحلتها .

(1) إياهو أو إيلياّ التّسبي من أنبياء إسرائيل ، عارض عبادة البعل التي اتّبعها الملك أخاب بن عمري في السّامرة . ترد سيرته في سفر الملوك الأوّل - أصحاح 17-22 ؛ وسفر الملوك الثاني - أصحاح 1-2 ، وفيه أنه رُفِعَ حيّاً ولم يمُت . يتكرّر ظهوره العجائبي في التلمود لينجد الحاخامات ويعلمهم . يُعرف في تراثنا الإسلامي باسم «نبي الله إلياس عليه السلام» ، يرد في القرآن الكريم : «وإن إلياس لمن المرسلين» إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين» (الصّافات : 122-124) .

وفي بعض متون الحديث الشريف والتراث الشفهي لقصص الأنبياء يرد باسم «الخضر - أبو العباس» ، ويقرن بعض الناس بالخطأ بين الخضر والقديس جاورجيوس .

فأخذت الحيرة من الرأبي يُوَحَنان كل ما أخذ ، فقال لإياهو : «لم يكفنا أن نُنكر عليهما أداء حق ضيافتهما وخدماتهما الطيبة بدفع أجره ما ، بل وتبادر إلى إهلاك بقرة هذا الرجل الطيب الذي . . .» .

فقاطعه إياهو : «صه ، فلتسمع أذنك ولتُبصر عينك ، ولكن فلتصمت ! فإن أنا أُجبتك فهو فراق بيني وبينك» .

وتابعا طريقهما معاً . وعند المساء وصلا دارةً واسعة فخمة ، يسكنها رجل غني متعجرف . فلقي الرجلان استقبالاً هزيباً ، وقُدّمت لهما قطعة من الخبز وكأس ماء ، حتى أن صاحب البيت لم يكثرث بمجرد الترحيب بهما أو الحديث معهما ، فباتا ليلتهما هناك مُهملين . وفي الصّباح لاحظ إياهو أن جداراً في البيت بحاجة إلى إصلاح ، فأرسل في طلب النجار وبذل أجره الإصلاح من ماله ، بأن هذا كما قال ردُّ لكرم الضيافة التي لقيها .

فتملّك العجب من جديد الرأبي يُوَحَنان ، لكنه لم ينطق بحرف ، وتابعا طريقهما قُدماً .

ولما قارب حلول الظلام ، دخلا مدينة كان فيها كنيسٌ كبير وفخم . ولما كان موعد صلاة المساء قد حلّ فقد دخلا الكنيس وراحا يُمعنان النّظر فيما بالمكان من الزخارف الغنيّة ، والطنافس المُخملية ، والثقوش المُذهّبة . وبعد اختتام الصلّاة ، قام إياهو وصاح عالياً : «أهنا من يودّ إطعام فقيرين وإيوائهما في هذه الليلة ؟» . فلم يُجب أحد ، وآبوا أن يضيّفوا المُسافرين الغريبين أو يكرمواهما . ولكن في الصّباح ، عاود إياهو دخول الكنيس ، وراح يصافح أفرادَه قائلاً : «أتمنى لكم أن تصيروا جميعكم رؤساء» .

في المساء التالي دخل الرجلان مدينة ثانية ، فلما سارع شماس الكنيس لاستقبالهما ، بعد إخبار أفراد الجماعة بقدم غريبين ، فُتحت أحسن دار للضيافة في المدينة لهما ، وراح الجميع يتنافسون في تقديم الكرم والرعاية لهما .

ففي الصّباح لدى توديعهما لهؤلاء ، قال لهم إياهو : «فليعيّن الرّبّ عليكم رئيساً واحداً فحسب» .

فهنا ، لم يعد يُوحَنان يُطبق صبراً ، فقال لإلياهو : «قُل لي ، أنبثني بتأويل هذه الأفعال التي شهدتها . فأولئك الذين عاملونا بغير اكرثات رُحِت تُغدق عليهم دعوات الخير ، وأما الذين أكرمونا وأحسنوا إلينا فلم توفهم حقهم بالمثل . فحتى إن كان لا بُدَّ من الفراق ، أرجوك أن تُخبرني بتأويل ذلك كلّه» .

قال إلياهو : «اسمع ، وتعلّم الوثوق بالله ، حتى وإن لم تفهم طُرُقَه ! فلَمَّا دخلنا أولاً بيت الرَّجل الفقير الذي عاملنا بلُطف ، اعلم أنه في ذلك اليوم بالذات كان مُقدراً أن تموت زوجته . فدعوتُ الرَّبَّ بأن تكون البقرة فداءً لها ، واستجاب الله دعواتي ، وأبقيت المرأة لزوجها . أمّا الرَّجل الغني الذي زُرناه بعدها ، فقد عاملنا بغير اكرثات ومع ذلك أصلحتُ له جداره ، وأصلحتُه بغير أساس جديد ، وبغير حفر إلى عمق الأساس القديم . فلو أنه أصلحه هو ، لكان قام بالحفر ولكان عثر على كنز مضمور تحته ، لكنّه الآن ضاع عليه إلى الأبد . أمّا أفراد الكنيس الذين أبوا أن يُضيفونا فقلتُ لهم : «فلتصيروا جميعكم رؤساء» ، والحق أنه برئيس واحد فقط يُؤمن عدم نشوب الخلافات» .

«فافهم وع ما أقول : إن رأيتَ خبيثاً يخوض في النعماء ، فلا تبتسّن أو يستولي عليك نَزَعٌ من حسدٍ ؛ وإن رأيتَ صالحاً قد أمضه الفقر وتقلّبتَه الرّزايا ، فلا يتوجسّن قلبك أو تدبّر بجنانك في عدل الله الظنون . فإن الرَّبَّ لَعَدْلٌ قويم ، وحُكمه حقٌ وصواب ، وعينُه ترى الخليقة بأجمعها ، وليس لأحد أن يقول له : «ما الذي فعلتَ؟»» .

وعقب هذه الكلمات ، اختفى إلياهو ، وبقي يُوحَنان بمُفرده⁽¹⁾ .

* * *

(1) هذه الرواية من أجده التلمود ، في حين أن أجده المدراس تختصّ بشرح وتذييل المرويّات التاريخية والأدبية للتوراه ، بقصص أنبيائها وملوكها ، ثم شخصياتها التاريخية اللاحقة (في أسفار النبيّيم والكتوبيم) . ويوحَنان (أو يهوشوع) بن ليشي متأخر عن شخصيات الأسفار اليهودية الثلاثة . وبذا يلاحظ القارئ مدى اتساع مساحة التلمود - من حيث حجمه وحقله الزماني - على الأسفار الثلاثة (تَنسَخ) ، وعلى ما يليها من شروحات في المدراس ، حتى غدا المصدر التشريعي الأول لليهودية الحاخامية الأرثوذكسية .

العروس والعريس

يُحكى أن رجلاً أحبَّ صبيّةً صادقةً وجميلةً ، فبادلها الوفاء وعاهدها أن يُقيم على محبته لها . ولحين من الزمان مضى كل شيء على ما يُرام ، وعاشت الفتاة بخير ووثام . ثم حصل ما جعل الرجل ينشغل عنها فتركها ، وجعلت تنتظره طويلاً ولكنه لم يعد . وأخذ مُحبوها يُشفقون لها بينما يهزأ بها العُدال ، الذين جعلوا يُشيرون إليها قائلين : «ها قد نَبَذَكَ ، ولن يعود مُطلقاً» . فالتمست الفتاة حُجرتها ، وراحت تقرأ في السَّرِّ الرسائل التي كان حبيبها يكتبها لها ، وكان في تلك الرسائل يعدها بالبقاء دوماً على العهد . فراحت تقرأها وتبكي ، لكنها وجدت فيها شيئاً من العزاء والسّلوى لقلبها ، فكفكفت دموعها وأوصدت في وجه الشكِّ قلبها .

وفي إطلالة يوم مُشرق مُفرح ، إذا بالرجل الذي أحبته يعود ، ولما دري بأن الناس كانوا يُشككون سألها كيف حافظت على وفائها ، فأرته رسائله وأكدت له ثقتها المطلقة .

فأمّة إسرائيل ، إبّان نكبتها وسببها⁽¹⁾ ، كانت الأمم تسخر منها ، وصارت آمالها في الانعتاق مثاراً للهُزء ، يُضحك من حُكماؤها ويُزري بأولياتها . لكن أمّة إسرائيل بقيت مواظبة على زيارة كُنُسها وارتياذ مدراسها . وكانت تقرأ الرسائل التي كان الله وجّهها إليها ، وتؤمن بما فيها من الوعود المقدّسة .

ولا ريب أن الله سيخلصها حين يشاء ، وهو عندما يقول لها : «كيف أمكنك البقاء وحيدة على إيمانك برغم هُزء الهازئين؟» ، فهي تُشير إلى كتب الشريعة وتُجيب :

«لولم تكن شريعتك لذتي ، لهلكت حينئذٍ في مدّتي» (المزامير 119 : 92) .

* * *

(1) لا يذكر لنا حاخامات التلمود ، لماذا يعاقب الله «شعبه المُختار» (أهل الكتاب لأمّ الحسرة) مئات وآلاف السنين ، إن كانوا لا يستحقّون العقاب ؟

الحقّ

يُحكى⁽¹⁾ أن الله عندما عزم على خلق الإنسان تجمّعت الملائكة حوله ، فقال بعضها متعجباً : «فلتخلق يا الله مَنْ يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ عَلَى الْأَرْضِ ، كَمَا نَسْبِحُ نَحْنُ وَنُرْتَمِ لِمَجْدِكَ فِي السَّمَاءِ» .

لكن غيرهم قالوا : «استمع لنا أيها الملك الجبّار ، ولا تخلق هذا الإنسان ! فالانتظام الرائع للسموات العلى الذي أحلّته على الأرض سوف يشوشه الإنسان ويُفسد فيه» .

ثم ران الصمت على الحشد المتنازع ، عندما ظهر ملاك الرحمة أمام عرش العزة وسجد . وكم كان صوته عذّباً رخيماً حينما قال : «أيها الآب ، فلتخلق الإنسان ، واجعله على صورتك الكريمة ! وسأملأ قلبه بالرحمة الإلهية ، وروحه أطبعها بالرفق المخلوقات جميعها ، فمن خلاله يتمثلون رمز تسبيحك» .

وسكت ملاك الرحمة ، فتكلّم ملاك السلام والدموع تهمل من عينيه : «بل لا تخلقه يا الله ! فهو ينقض السلام ، وسيعقب مجيئه إلى الأرض سفكٌ للدماء لا محالة . وتعم الأرض الفوضى والرعب والحرب ، فلا يبقى على الأرض من عمل يدك مكانٌ بهيج» .

ثم تكلم ملاك العدل بصوت حازم : «فعندها تُدينه يا الله ، ويكون ماثلاً على الدوام تحت حكمي» .

فاقترب ملاك الحقّ قائلاً : «لا يا إله الحقّ ، لا تخلقته ، فمع هذا الإنسان ينزل إلى الأرض الكذب والبُهتان !» .

ثم سكت الجميع ، ومن قلب الصمت صدر الوحي الإلهي : «فإلى الأرض تنزل معه يا ملاك الحقّ ، لكنك تبقى مُقيماً في أحواز السماء ، متردداً بين السماء والأرض ، مُحكماً بينهما الوصال» .

* * *

(1) لا يرد هذا الحوار أبداً في التوراه (التكوين ، أصحاح 2) ، بل تنفرد به أجدهاء التلمود .

خراب بيتار

يُحكى أنه كان من العادات المتبعة في بيتار⁽¹⁾ عندما يولد لأبوين طفل أن تُغرس باسمه شجرة أرز صغيرة ، لتنمو وتكبر مع الطفل . فحدث في بعض الأيام أن ابنة الإمبراطور كانت تركب عبر المدينة ، فانكسرت عربتها ، وقام مرافقوها باقتلاع أرزة صغيرة لإصلاحها . فما كان من الرجل الذي غرس هذه الأرزة إلا أن هجم على العبيد وأوسعهم ضرباً .

فأثار هذا العمل سخط الإمبراطور بشدة ، فوجّه إلى المدينة على الفور جيشاً قوامه ثمانون ألف رجل . فقام هؤلاء باجتياحها وقتلوا سكانها ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وجرت الأنهار حمراء من فيض الدماء ، ويُقال إن الأرض أضحت خصيبة مُثمرة للزراعين مُدة سبع سنين من أجساد الهالكين ، الذين يُقال إن عددهم كان يناهز الأربع مائة ألف يسرئيلي .

* * *

خراب يروشلايم

عندما عظمت ذنوب يسرئيليين كثيراً وفاقت اصطبار العليّ القدير ، ورفضوا الاستماع إلى كلام يرميا⁽²⁾ وتحذيراته ، غادر هذا النبي يروشلايم وارتحل إلى أرض بنيامين . فظالما كان لا يزال في المدينة المقدسة ، ويدعو لها بالرحمة ، بقيت بمنجاة . لكنه عندما مضى إلى أرض بنيامين ، أتى نبوخدناصر⁽³⁾ لتدمير أرض يسرئيل ، فنهب المدينة ، وسلبها نفائسها ، وتركها طعمةً لألسنة اللهب تضطرم بها . وأرسل نبوخدناصر لتدمير يروشلايم قائده نبوزرادان⁽²⁾ (فيما بقي هو نفسه في ريبلاه) .

(1) كذا بالأصل ، والصواب : بَيتَر ، بلدة محصنة على مشارف القدس بجنوبها الغربي .
(2) الواقعة في سفر الملوك الثاني ، الأصحاح 25 ، وفيه (25 : 8) : «وفي الشهر الخامس في سابع الشهر ، وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخدناصر ملك بابل ، جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى يروشلايم ، وكل بيوت العظماء أحرقتها بالنار . وجميع أسوار يروشلايم مُستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين» .

لكنه قبل أن يأمر بتسيير الحملة ، سعى عن طريق علامات الفأل ، بحسب خُرَافات عصره ، إلى التأكد من مآل الحملة . فرمى عن قوسه سهماً وجهه إلى الغرب ، فحاد السهم صوب يروشلَيم . ثم رمى ثانية نحو الشرق ، فانطلق السهم نحو يروشلَيم . فرمى الثالثة ، راغباً بمعرفة الاتجاه الذي تقع فيه المدينة العاصية التي ينبغي تدميرها في هذه الدنيا ، وللمرة الثالثة توجه السهم صوب يروشلَيم .

فلما تم اجتياح المدينة ، سار مع أمرائه وقادته تجاه الهيكل ، وصاح مُستهزئاً بإله يسرائيل : «فأنتَ إذا الإله العظيم الذي يرتجف أمامه العالم ؟ ها نحن أولاء هنا في قلب مدينتك وهيكلك !» .

وعلى أحد جُدران المدينة عشر على أثر لسان سهم ، يدلّ على أن أحداً قد قُتل أو رمي في هذا المكان ، فسأل : مَنْ قُتل هنا ؟ .
أجاب النَّاسُ⁽¹⁾ : «زَخْرِيّا بن يهوِياداه ، الكاهن الأكبر ، كان لا يكفّ عن تفريعنا على آثامنا وكُفْرنا ، فمللنا من كلامه وقمنا بإعدامه» .

ثم قام جنود نبوخذنَاصِر بسفك دماء أهل يروشلَيم ، بما فيهم كهنتُها وأهلُوها ، شيوخها وشبابها ، ونساؤها ، وصبيتها الذين يحضرون الدروس في مدارسها ، وحتى الرضع في مهودهم . ودام الاحتفال الدموي حتى اشمازّت منه حتى نفس قائد الوثنيين الأعداء ، فأصدر أمراً بإيقاف هذه المذبحة الجماعية . ثم أمر بجمع كافة الأواني الذهبية والفضية من الهيكل ، وأرسلها بمراكبه إلى بابل ، ثم بعد ذلك أمر بطرح النار في الهيكل .

(1) انظر مراثي يرميا 2 : 20 حول مقتله على يد الملك يواش . وفي هذه القصص الأسطورية الرمزية أمثلة على نتاج الفكر البشري (لكهنة مجهولين) بتأليف مقاطع من أدب كهنوتي يتقلب وتصلقه الألسنة والأقلام عبر العصور ، ليصير يوماً ما جزءاً لا يتجزأ من عقيدة دينية راسخة . فهنا مثلاً : يُعقل أن يلحظ الفاتح المحارب أثر سهم في جدار ويكثرث لأمر كاهن أعدم ؟ لا يعدو الأمر كونه رواية أدبية بما فيها من حبكة وعبرة وتشويق !
ثمة علم يختص ببحث المرويات القديمة هو «النقد النصي» Textual-Critique ، ظهرت به عشرات المؤلفات حول تأثير التوراه الكبير بتراث بابل وكنعان والزرادشتية .
يبقى سؤال : آية أديان هي التي داخلها فن «صناعة المقدس» هذا ؟

فتقدّم الكاهن الأكبر ، ولبس ثوبه وإيقوده (TISON الحلة الحبرية) قائلاً :
«طالما أن الهيكل حلّ به الخراب ، فلا حاجة لكاهن يتولّي الصلاة» ، وألقى نفسه
في النار فهلك . فلماً رأى ذلك الفعل بقيّة الكهنة ممن ظلّ على قيد الحياة ، حملوا
كثاراتهم وآلات عزفهم وخذوا حذو الكاهن الأكبر .

وأما من تبقى من الناس ممن لم يقتلهم الجند ، فقد أوثقوا بقيود الحديد ،
وحُمّلوا مع غنائم الظافرين ، وسيقوا إلى السبي . أمّا يرمياهُ (1) النبي فكان عاد
إلى يروشلّايم وانضمّ إلى مصير إخوانه التّعساء ، الذين أخرجوا شبه عرايا .
فلماً صاروا إلى موضع يُعرف بـ «بيت كورو» ، ابتاع لهم يرمياهُ ثياباً أحسن مما
عليهم . وخاطب نبوخذناصر والكلدانين قائلاً : «لا تظنّوا أنكم بحولكم
وقوتكم تمكّتم من إخضاع شعب الله المختار ، بل هي ذنوبهم وآثامهم التي
جعلتهم مستحقّين لهذه المحنّ والنكبات» .

وهكذا ، تقدّم الشعب في رحلة سبيهم وهم يكون وينوحون ، حتى بلغوا
أنهار بابل . فقال لهم نبوخذناصر : «غثوا يا قوم ، واضربوا لي بقيثاراتكم ، هيّا
رتموا الأناشيد التي اعتدّتم ترنيمها لربكم العظيم في يروشلّايم» .

فردّأ على هذا ، علّق الليويون كثاراتهم على شجر الصفصاف قرب ضفاف
النهر ، كما هو مكتوب : «على أنهار بابل هناك جلسنا ، بكينا أيضاً عندما تذكّرنا
صهيون ، على الصفصاف في وسطها علّقنا كثاراتنا» (مزاسير 137 : 1) . ثم قالوا :
«لولا نتوان عن أتباع أمر الله ورتمنا بحمده مخلصين لما وقعنا بين يديك . والآن
كيف نرتّم لك الصلوات والأناشيد التي لا تنبغي إلا لوجه الله الأزلي ؟ كما قيل :
«كيف نرتّم ترنيمة الربّ في أرض الغُرباء ؟»» (137 : 4) .

(1) في الترجمة العربية للأسفار اليهودية يرد اسمه : إرميا ، وهو غلط . فالاعتبار بمنطوق
لغة الأصل وليس قولبات اللغات الأخرى . ولذلك كتبنا هنا : أبرهام وليس إبراهيم ،
ويسرتيل وليس إسرائيل ، وموشيه وليس موسى ، ويروشلّايم وليس أورشليم . هذا
فيما يختص بنقل المقاطع العبرية من التلمود ، أما فيما يخص ورود هذه الأسماء بترائنا
الإسلامي فالبديهي أن نلتزم المعرب (مثال : إسحاق ، يونس ، إلياس) ، وأمّا ما له
تسمية عربية مُغايرة فنضبطها أيضاً (مثل : القُدس الشريف) . ونُذكر أخيراً أن لكل لفظ
ثلاثة معانٍ معيارية : اشتقائي ، وعُرفي ، واصطلاحي .

ثم قال القادة للحراس : «هؤلاء الرجال أهل للموت ، فهم يابون إطاعة أوامر الملك ، فليموتوا» .

ولكن إذا بفلطياه بن يهوئاداه يتقدم ويخاطب نبوخذناصر قائلاً : «هَبْ أَنْ قَطِيعاً سَلِّمْ إِلَى يَدَيَّ رَاعٍ ، فَخَطَفَ الذَّنْبُ مِنْهُ حَمَلاً ، أَخْبَرَنِي مَنْ يَكُونُ الْمَسْؤُولُ أَمَامَ الْمَالِكِ عَنِ الْحَيَوَانَ الْمَفْقُودِ؟» .

أجاب نبوخذناصر : «الرَّاعِي بِالتَّكْيِيدِ» .

فأجاب فلطياه : «إِذَا أَصَغَ إِلَى كَلَامِكَ الَّذِي قُلْتَهُ : «اللَّهُ أَعْطَى يِسْرَائِيلَ إِلَى يَدَيَّ» ، فَتَكُونُ مَسْؤُولاً إِذَا عَمَّنْ يُذْبَحُ» .

فأمر الملك بفك القيود عن الأسرى ، ولم يتم إعدامهم .

* * *

خراب يروشلايم الثاني

كان مصير يروشلايم الدمار بسبب قَمْصَا وبار قَمْصَا ، وهذا هو مؤدَى ما حصل :

يُحْكِي أَنْ ثَمَّةَ رَجُلًا عَمِلَ وَليمةً ، وَكَانَ صَدِيقًا لِقَمْصَا ، لَكِنَّهُ كَانَ يُغْضُ بَارَ⁽¹⁾ قَمْصَا . فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَى قَمْصَا يَدْعُوهُ إِلَى وَليمةِ ، غَيْرَ أَنَّ الرَّسُولَ أَخْطَأَ فَسَلَّمَ الدَّعْوَةَ لِعَدُوِّ سَيِّدِهِ ، بَارَ قَمْصَا .

فَقَبِلَ بَارَ قَمْصَا الدَّعْوَةَ ، وَحَضَرَ فِي الْوَقْتِ الْمَعِيْنِ لَهَا ، لَكِنْ عِنْدَمَا أَبْصَرَ الْمُضْيِفَ عَدُوَّهُ يَدْخُلُ بَيْتَهُ ، أَمَرَهُ بِالْمُنَادِرَةِ عَلَى الْفُورِ . فَقَالَ بَارَ قَمْصَا : «لَا ، طَالَمَا أَنْتِي حَضَرْتِ فَلَائِي تَهْنِي هَكَذَا بِالطَّرْدِ . وَسَوْفَ أَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَ كُلِّ مَا أَكَلْتَهُ وَأَشْرِيهِ» .

(1) بار لفظة آرامية : حن ، دخلت العبرية وتعني : ابن . فلذا يلاحظ في العبرية أن الأسماء قد ترد بصيغة : «بار» أو «بن» (أي ابن) ، هذا ولم تُثبت ألف ابن في النص حيث نقلها بصيغتها العبرية בן وليس العربية . أما اسم قَمْصَا فارامي : צמסא جرادة .

فقال الرَّجُل : «لست أريد مالك ، ولا حُضورك هنا . فانصرف على الفور» .

لكن بار قَمُصاً تمسك بموقفه ، وقال : «أدفع لك جميع تكلفه وليمتك ، لا تدعني أهان في عيون ضيوفك» .

فكان صاحب الدعوة مُصمماً على موقفه ، فلم يعد أمام بار قَمُصاً إلا أن انسحب من صالة الوليمة مُغضباً . وقال في قلبه : «عديداً من الحاخامات كانوا حاضرين ، فلم يتدخل واحد منهم لصالحي ، ولذا فإن هذه الإهانة التي حلت بي أمام أعينهم لا بد أنها أرضتهم» .

فما كان من بار قَمُصاً إلا أن بادر بالوشاية ضد اليهود أمام الملك ، قائلاً : «اليهود ناثرون في وجهك» .

فسأل الملك : «وكيف أتبين ذلك ؟» .

أجاب بار قَمُصاً : «أرسل مقدمة إلى هيكلهم ، فترى أنها تُرفض» .

فأرسل الحاكم عندها عاجلاً صحيح البنية ليُضحى به من أجله في الهيكل ، ولكن بترتيب من بار قَمُصاً أوقع الرسول بالعجل عيباً ، فكانت النتيجة بطبيعة الحال ، من جرأء كونه غير مُلائم للأضحية (كما في سفر الليويين 22 : 21)⁽¹⁾ ، أنه قُوبل بالرفض .

فلهذا السبب بالذات تم توجيه قيصر⁽²⁾ لاحتلال يروشلايم ، فأحكم الحصار على المدينة سنتين . وكان أربعة من أثرياء أهالي يروشلايم قد أذخروا ما يكفي من الطعام للقيام بأوَد السكّان أكثر من ذلك بكثير ، ولكن لما كان السكّان كارهين لمحاربة الرومان وخائفين منهم ، فقد خربوا الأهرأء وتسيبوا في مجاعة قاسية للغاية على المدينة .

(1) وهو : «وإذا قربَ إنسانٌ ذبيحةً سلامة للربِّ وفاءً لنذر أو نافلة من البقر أو الأغنام تكون صحيحةً للربِّ ، كلُّ عيب لا يكون فيها . الأعمى والمكسور والمجروح والبشير والأجرب والأكلف ، هذه لا تقربوها للربِّ ، ولا تجعلوا منها وقوداً على المذبح للربِّ» .

(2) اجتاحت فلسطين النائب الإمبراطوري فسباسيان ، ثم احتل ابنه تيطوس القدس 70 م .

ويُحكى أن سيّدة من سِراة القوم ، هي مريم بنت بايتوس ، دفعت بخادمتها لشراء بعض الطحين للاستعمال المنزلي . فألقى الخادم الطحين قد بيع كله ، ولكن كان هناك بعض الجريش الذي كان بوسعه شراءه . لكنه خف إلى الدار ، لكي يستشير رغبة سيّدته أولاً بخصوص ذلك ، فاكتشف عند عودته أن ذلك قد بيع أيضاً ، ولم يعد بوسعه شراء شيء سوى بعض جريش الشعير الخشن . فلم يشأ شراء ذلك بغير إذن ، فعاد إلى الدار ثانية ، ولكنه عندما عاد إلى الهُري للحصول على جريش الشعير ، كان ذلك هو الآخر قد نفذ .

عندها خرجت سيّدته بنفسها لشراء الزاد ، لكنها لم تعثر على شيء . وإذا عضها الجوع بنابه ، التقطت من الطريق قشرة ثمرة تين وأكلتها ، فاعتلت من ذلك صحتها وماتت . ولكنها قبل موتها رمت بكل ذهبها وفضتها في الطريق ، وقالت : «ما نفع هذه الثروة إن لم يكن بوسعي ابتياع الطعام بها؟» . وهكذا تحقّق كلام يُحرّق قليل في نبوته (7 : 19) : «يلقون فضتهم في الشوارع» .

فبعد خراب الأهراء ، أبصر الرّابي يوحنا أثناء مشيه في المدينة النَّاس يسلقون القش في الماء ويشربون منه للتقوّت . فقال متعجباً : «آه ، ويل لي على هذه المحنة ! كيف يقدر مثل هذا الشعب على مقاومة جيش عظيم؟» . فتقدّم إلى ابن أخيه بن بتيّاح ، أحد زعماء المدينة ، للحصول على إذن بمغادرة يروشلايم . غير أن بن بتيّاح أجاب : «لا مجال لذلك على الإطلاق ، لا يمكن لكائن حي أن يغادر المدينة» . فقال يوحنا متوسلاً : «أخرجني إذا كجئة» . فأذعن بن بتيّاح لذلك ، وتمّ وضع يوحنا في نعش ، وحُمّل عبر أبواب المدينة ، وكان الرّابي إليعيزر والرّابي يهوشوع وبن بتيّاح يلعبون دور المُشيعين . وجعل النعش في بعض الكهوف ، فبعد أن عاد الجميع إلى منازلهم ، قام يوحنا من النعش ، وتوجّه إلى معسكر الأعداء . وهناك حصل من القائد على الإذن بتأسيس كنيّة عليا للشرعية في يني⁽¹⁾ ، يكون الرّابون جمليثيل رئيساً لها .

(1) اشتهر مجمعها الديني اليهودي بعد خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها الرّابي يوحنا بن زكاي مركزاً للسنهدين ، كما أقام الرّابي جمليثيل يشيفا (معهداً دينياً) سماه : דרם ביבנה «كريم بيته» (أي كرم يني) . وكان الرّومان يسمونها : يامنيا Jamnia .

سُرْعان ما اجتاحت تيطوس المدينة ، وقتل من أهلها كثيراً ، وأرسل الآخرين سبايا إلى المنفى . ثم دخل الهيكل ، حتى قُدس الأقداس ، وهتَكَ السَّتار الذي يفصله عن الأقسام الأقل قُدسية . واستولى على الأواني المقدسة ، وأرسلها إلى روما .

من خلال قصة قَمْصا وبار قَمْصا هذه ينبغي لنا أن نتعلّم الحرص على عدم إهانة جيراننا ، وخاصةً عندما يؤدي مثل هذا السَّبب البسيط إلى التَّسبب بنتائج وخيمة . ولقد قال حاخامونا بأن مَنْ يعمل على إحراج جاره بإهانة ما ، فهو أشبه ما يكون بمَنْ يسفك دمًا .

* * *

حَنَاهُ وَعِيَالُهَا السَّبْعَةُ

في غضون الأيام الرهيبة التي أعقبت سقوط المدينة المقدسة ، زُجَّ بحَنَاهُ⁽¹⁾ وعيالها السبعة في السَّجَن .

ويحسب أعمارهم ، كانوا يؤتى بهم أمام الغازي الطاغية ، فيؤمرون بتقديم فروض الطاعة ، بالسُّجود له ولآلهته .

فقال الابن الأكبر متعجباً : «معاذ الله أن أسجد لوكنك . فوصايانا الإلهية تأمرنا : «أنا الرَّبَّ إِلَهُكَ» ، فلغيره أبدأ لا أسجد» .

فسُحِبَ مباشرة إلى الخارج لكي يُعَدَمَ ، وتم توجيه الطلب ذاته إلى أخيه ، وهو الابن الثاني . فأجاب : «أخي لم يسجد ، فأنا لا أفعل أيضاً» .

سأل الطاغية : «ولمَ لا ؟» .

أجاب الفتى : «لأن الوصية الثانية من الوصايا العشر تأمرنا : «لا يَكُنْ لَكَ آلهةٌ أخرى أمامي»» .

(1) يُعرف الاسم في العربية بصيغة : حَنَّة . كحَنَّة أم مريم البَتول ، عليها السَّلَام .

فسرعان ما تلا مصرعه كلماته الجريئة هذه .

وقال الابن الثالث : «ديني يُعلّمني : «فإنك لا تسجد لإله آخر» (خروج - 34 : 14) ، فنعم المصير الذي ناله أخواي ، دون السجود لك أو لأوثانك» .

وطلبت الطاعة ذاتها من الابن الرابع ، فقال بكل شجاعة وإيمان كماخوته : «مَنْ دَبَّحَ لآلهة غير الرَّبِّ وحده يهلك» (خروج 22 : 19) ، فبلا رحمة قُتل .

أما الفتى الخامس ، فقد قال واهباً نفسه الغضبة تكريماً لشعار بني يسرئيل : «اسمع يا يسرئيل ! الرَّبُّ إلهنا ربُّ واحد» .

«لماذا أنت بكل هذا العند؟» ، سئل الأخ السادس ، عندما مثل هو الآخر أمام الطاغية وازدرى بالطلب المطروح عليه .

فقال : «لأن الرَّبَّ في وسطك إلهٌ عظيمٌ ومخوفٌ» (تثنية 7 : 21) ، ومات في سبيل المبادئ التي اعتتها .

ثم أحضر الفتى السابع الأصغر أمام قاتل إخوته ، فخاطبه برفق قائلاً : «أي بُني ، تقدّم فاسجد لآلهتي» .

فأجاب الصّبي : «معاذ الله ! ديننا المقدّس يعلمنا : «فاعلم اليوم ورَدِّد في قلبك ، أن الرَّبَّ هو الإله ، في السّماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ، ليس سِواه» (تثنية 4 : 39) . فلا يمكن أبداً أن نبذل إلهنا بسواه ، ولا هو يبدّلنا بأي شعب آخر ، لأنه كما هو مكتوب : «قد واعدت الرَّبُّ اليوم أن يكون لك إلهاً» (تثنية 26 : 17) ، فمكتوب أيضاً : «وواعدك الرَّبُّ اليوم ، أن تكون له شعباً خاصاً»⁽¹⁾ .

ومع ذلك ، بقي الطاغية يتكلّم برفق وبكلمات رقيقة : «أنت لم تنزل صغيراً ، ولم ترَ بعدُ إلا قليلاً من مباحج الحياة ومفاتها ، بل أقلّ ممّا كان نصيب إخوتك . فافعل كما أطلب منك ، فيكون مستقبلك باهراً سعيداً» .

(1) تمتّ الآية : «وتحفظ جميع وصايا ، وأن يجعلك مُستعليّاً على جميع القبائل التي عملها في الشّقاء والاسم والبهاء ، وأن تكون شعباً مقدّساً للرَّبِّ إلهك ، كما قال» .

قال الصبي : «الرَّبّ يحكم دائماً وأبداً ، أما شعبك ومملكته فزائلان . وإن كنت اليوم هنا ، فغداً تصير إلى قبرك . وإن كنت اليوم في العلياء ، فغداً في أسفل سافلين . وأما الله العليّ القدير فدائمٌ باقٍ إلى الأبد» .

فتابع الإمبراطور : «أما ترى إخوتك أمامك صرعى ؟ فيكون مصيرك مثلهم إن تمتعت عن فعل ما أريد . أتري ، سأطرح خاتمي إلى الأرض ، فانحنِ والتقطه ، فأعد ذلك منك ولاءً لآلهتي» .

أجاب الصبي بجنان ثابت : «أتظنني أخشى تهديداتك ؟ كيف أخشى بشراً أكثر من الله العظيم ، ملك الملوك ؟» .

سأل الإمبراطور : «فأين هو إلهك ، وما يكون بالضبط ؟ أئمة إله يكون على وجه الدنيا ؟» .

أجاب الفتى⁽¹⁾ : «أبكون هناك عالمٌ بغير خالق ؟ عن آلهتك يُقال⁽²⁾ : «لها أفواه ولا تتكلم» . أما عن إلها فيقول مُنشد المزامير : «بكلمة الربّ صنعت السموات»⁽³⁾ . وآلهتك «لها أعينٌ ولا تُبصر» ، أما هو فله «أعينُ الربّ الجائلةُ في الأرض !»⁽⁴⁾ . وآلهتك «لها أذانٌ ولا تسمع» ، بينما عن إلها مكتوب : «والربّ أصغى وسمع»⁽⁵⁾ . وعن آلهتك قيل : «لها مناخر ولا تشم» ، بينما «تنسمُ الربّ رائحة الرضى»⁽⁶⁾ . وآلهتك «لها أيدي ولا تلمس» ، أما إلها فيقول : «بيدي أنا صنعتُ الأرض»⁽⁷⁾ . وعن آلهتك مكتوب : «لها أرجل ولا تمشي» ، بينما يخبرنا زخرياً عن إلها : «وتقف قدماهُ في ذلك اليوم على جبل الزيتون»⁽⁸⁾ .

(1) خطبة بليغة ، بودنا - بعد جهد ساعتين في تخريج آياتها من الكتاب البالغ 1358 صفحة - لو

فهم كيف يلقيها طفل على مسمع إمبراطور يهدده بالقتل بعد مقتل 6 إخوة له !

(2) جميع هذه الإلماعات عن الأصنام مصدرها مزامير داود - 115 : 5-7 .

(3) سفر المزامير - 33 : 6 .

(4) سفر زخرياً - 4 : 10 .

(5) سفر ملاخي - 3 : 16 .

(6) سفر التكوين - 8 : 21 .

(7) سفر يشعيا - 45 : 12 .

(8) سفر زخرياً - 41 : 4 .

ثم قال الإمبراطور⁽¹⁾ الظالم الغشوم :

«فإن كانت لإلهك حقاً هذه الصفات كلها ، فلماذا تُراه لم يخلصك من سلطانتي؟» .

أجاب الفتى⁽²⁾ : «لقد نجى حنّياه ورفاقه من سطوة نبوخذناصر⁽³⁾ ، لكنهم كانوا صالحين ، وكان نبوخذناصر ملكاً يستحق أن يشهد معجزة تقع . أما أنا فلست أهلاً للنّجاة ، ولأنت قمين باستظهار جبروت الله!» .

عندها ، أصدر الطاغية أمره : «فليقتل الفتى كإخوته» .

فتكلّمت حنّاه ، أم الفتية وصرخت : «أعطني طفلي أيها الملك الظالم ، دعني أضمه بذراعيّ قبل أن تهلك روحه الغضة الطاهرة!» .

وألقت بذراعيها على الفتى ، وحضنته بقوة إلى حضنها ، لاصقة شفيتها بشفتيه . وصاحت : «خذ روعي ، اقتلني أولاً قبل طفلي» .

فأجاب ساخراً بها : «لا ، ليس لي فعلٌ ذلك إذ تحظره شرائعكم⁽⁴⁾ : «وأما البقرة أو الشاة فلا تذبحوها وابنها في يوم واحد» (ليوِين 22 : 28) .

فأجابت الأم : «أواه ، ويلٌ لك من حافظٍ للشريعة حريص عليها!» . ثم شدّت إلى صدرها جسد طفلها ، وقالت : «امض يا حبيبي ، فقل لأبرهّام إن أضحيّتي فأقت أضحيّته . فإن أقام مذبحاً ليضحّي عليه يصحاق ، فأملك أقامت سبعة مذابح ، وضحت بسبعة من أمثال يصحاق في يوم واحد . وهو كان في معرض تجربة فحسب ، أما أمك فقد امتحنت بالفعل»⁽⁵⁾ .

(1) لم يكن تيطوس إمبراطوراً ، بل كان أبوه فسپاسيان (69-79 م) ، خلفاً لنبيرون .
(2) يلوح لنا أن هذا الفتى لا يتجاوز - بحسب الرواية - 5 أو 6 سنوات ، فيكون منه كل هذه الأجوبة القويّة المفحمة لتيطوس ؟ عودٌ على نظرية «صناعة المقدّس» .

(3) انظر خبر ذلك في سفر دانييل ، الأصحاح الثالث .

(4) إذا كان تيطوس يحفظ أسفار اليهود عن ظهر قلب ، فلا عجب أن يلقي الطفل خطبة تتضمن 10 آيات ، كل واحدة منها في موضع مختلف من الأسفار !

(5) القصة قاسية جداً ، الهدف من قيمتها الرمزية في التلمود تجسيد ما وقع لليهود من جور وعسف في تاريخهم ، بغرض الاستفادة من ذلك في شدّ أزرهم .

وبعد إعدام ابنها الأخير ، غَدَّت حَنَاهُ مَجْنُونَةٌ فَاقِدَةٌ لِلْعَقْلِ ، فَأَلْقَتْ بِنَفْسِهَا
مِنْ سَطْحِ مَنْزِلِهَا . وَلَمَّا سَقَطَتْ فَارَقَتْ الْحَيَاةَ عَلَى الْفُورِ⁽¹⁾ .

فَطُوبَى لَكُمْ ، يَا أَبْنَاءَ حَنَاهُ السَّبْعَةِ ، وَهَا هُوَ ثَوَابِكُمْ فِي الْآخِرَةِ يَنْتَظِرْكُمْ .
بِنَعْمِ الْإِخْلَاصِ عَبْدَتُمْ إِلَهُكُمْ ، وَإِذْ تَجْتَمِعُ أُمَّكُمْ بِأَبْنَائِهَا الْبَرَّةِ فِي الْآخِرَةِ ، فَفِي
النَّعِيمِ خَالِدَةٌ مُخَلَّدَةٌ تُقِيمُ .

* * *

(1) القصة بنسبة عريضة من التفاصيل استعارها التراث الديني البيزنطي بقصة القديسة صوفيا
Hagia Sophia ، واستشهاد بناتها الثلاث : إيمان ومحبة ورجاء ، في سبيل الإيمان
المسيحي ، ضمن موقف مشهدي مؤثر . نعود دوماً للتذكير بمسألة التواتر والاستنساخ
في التراث العرفاني الروائي لقصص الأولياء والصالحين والشهداء بين الأديان ، والخط
غير المرئي (أو المهمل) بين كون الرواية مُسندة أم منحولة . لكن المثير أن الرواية المنحولة
(رغم وضعها) قد تكون أجمل وأبعد تأثيراً في نفوس المؤمنين !
وبالإجمال فإن صيغة الخطاب الغنوصي الموجه للعامة بين الديانات تكاد تكون واحدة ،
ولا يمكن بحال من الأحوال إنكار واقع الاستعارة والاقتباس المتبادل .